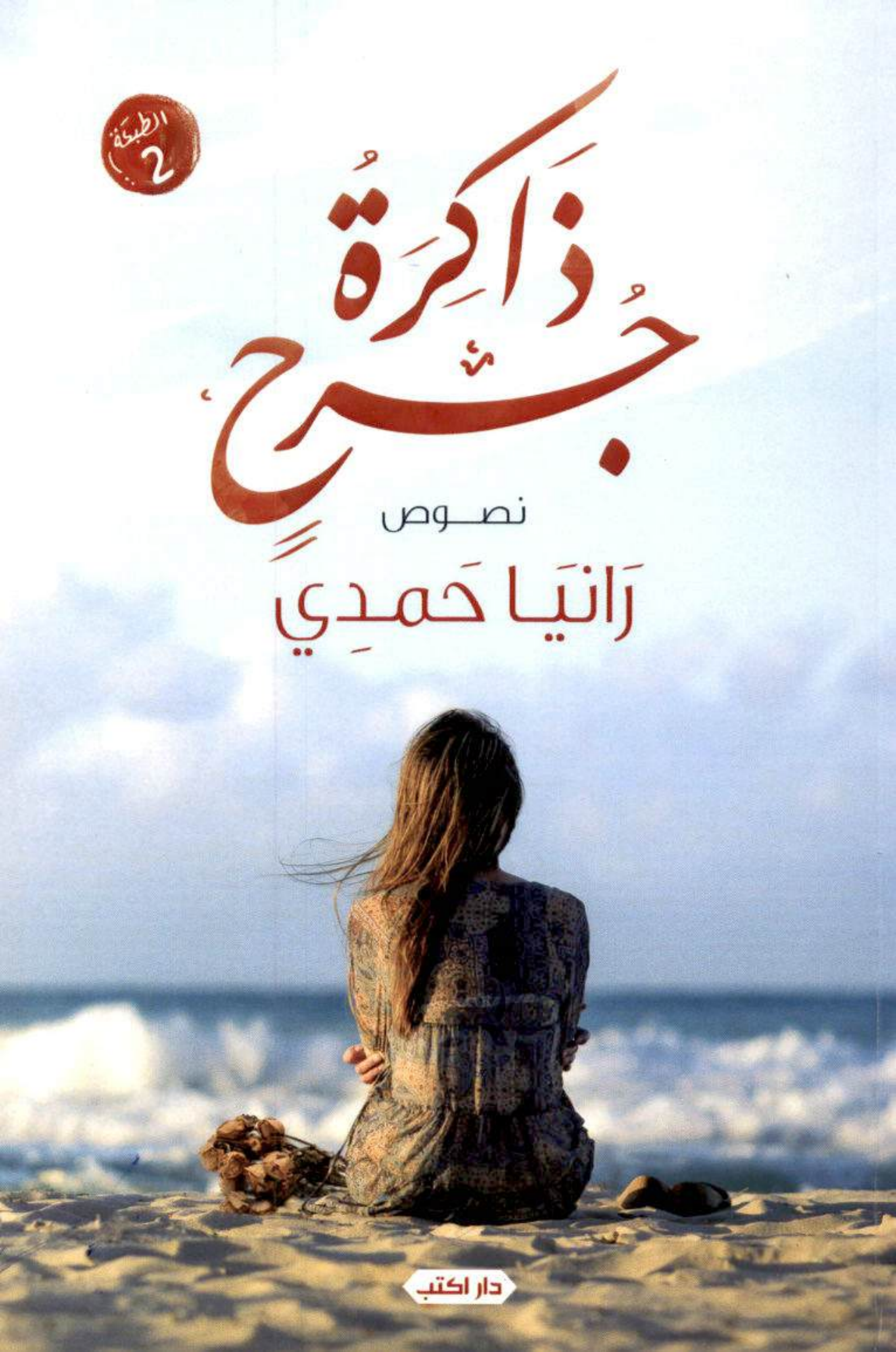

الطبعة 2
ذاكرة جرح
نصوص
رانيا حمدي
دار اكتب

ذَاكِرَةُ جُرْحٍ

ذَاكِرَةُ جُرْحٍ

رانيا حمدي

الطبعة الثانية ، القاهرة 2018م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد رجب عواد
رقم الإيداع : 25977 /2014
I.S.B.N: 978-977-488-337 -8



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

ذَاكِرَةُ جُرْحٍ

نصوص

رانيا حمدي



دار اكتب للنشر والتوزيع

"لا أتذكر قلبي إلا إذا شقه الحب نصفين أو جفّ من

عطش الحب"

محمود درويش

***

"من الجرح وحده يولد الأدب"

أحلام مستغانمي

إلى كل من دعَّمني ووثق بي وشدَّ على يدي

وانتظر كلماتي لتخرج إلى النور..

أحبكم في الله

إلى حَبِيبَيَّ/ أبي و أمي

أعشق إفطار صباحات الجمعة معكما..

أسعد بشدة حينما أثرثر معكما عند عودتي من العمل؛

فتردَّ مداعبًا "بطلي رغي بقا صدعتينا"..

وتردين في حنو بالغ "سيبها رغيها وحشني"..

أعشق الحياة في كنفكما.. رقتكِ واحتوائكِ وحنوكَ وأمانكَ..

كبرت وأيقنت أنه لا حب يضاهي حبكما..

رائحتكما بمثابة إكسير الحياة لي..

حفظكما الله لي وقدرني على برِّكما..

استهلال

أنا وآخَري كلانا لا يشبه الآخر في شيء إلاّ في تفردنا.. تقوم علاقتنا على الرحمة..

بالضرورة أتيت منه، وبالضرورة أكمله، ولكن ليس بالضرورة أن يعود الضلع لمكمنه، وظيفة الضلع أن يحمي القلب.. إن كانت الحماية في القرب إذًا صلح الوصل وانتفى الغياب، وإن كانت في البعد فقد صح العذاب.. بعض من الألم لا يضر.. وهل خلقنا إلا في كبد؟..

الحبُّ شمس.. سطوع وتوهج، كما أنه احتراق.. انصهار، إما لك أو عليك.. وللحب أوجه عدة تختلف باختلاف التصورات؛ فأحيانًا على الحرمان أن يكون أكبر وعلى الجرح أن يكون أعمق، وعلى الخسارة أن تكون أوقع، وعلى الذكرى أن تتعدى حجم قاطنيها ذاتهم.. وعلى الوهم أن يرسم لكل منا شخصية ممنوعة عصيَّة، كي يُسمَّى حبًّا..

كما أنه التقاء ووداع.. خلود حد الوجع..

وليست كل اللقاءات لقاءً، بل هناك لقاءات بمثابة حفلات وداع.. لقاءات تسمح ليديك أخيرا بترك الشيء.. تحل وثاقك.. تهديك ما ظللت تركض لتدركه فتجد نفسك طوعا تتركه..

وتصور يجعل ما بينهما نزالًا.. صراعًا مريرًا ما بين جرح وطعنات، وآخر ما بين صمت وبوح.. هي في بوحها كالشمس وهو مطبق على سره كالبحر..

كلها للحبّ تصورات.. مكمن الجرح في التصورات..

لكل منا تصوره ولكل منا احتياجه فإن خالف احتياجي تصورك وإن خالف تصوري احتياجك اختلفنا على ذات الحبّ.. والنفوس كالأحجار.. وفي الاحتراق يكمن جوهر الأمر..

قد مات شهيدًا من أحرقته التصورات..

دموع الخريف

مباركات في كل مكان.. تتهادى بين المكاتب موزعةً الدعوات.. يحمرّ وجهها خجلًا وترتسم ابتسامة سعادة على ثغرها مع كل مباركة أو دعاء.. تكتب طلبًا بالأجازة وتطلب منه التوقيع عليه بالموافقة.. يبتسم مهنئًا.. تخرج من المكتب كعصفورة تطير من السعادة ويظل وحده..

ينقضي اليوم وعقله يكاد يجن من سعادتها ومباركاتهم.. لم يغادر عائدا لمنزله.. ظل جالسًا على كرسيه صامتًا يجلد نفسه متمتمًا:

"جبان.. ولا مرة اتجرأت تصارحها.. بس كنت هقولها ايه؟!.. كان ممكن أغامر علشانها بس مكنش ينفع أغامر بيها"..

تهدأ نفسه وكأنه وجد عزاءه.. ينهض قاصدًا مكتبها.. يجلس مكانها.. يستنشق رائحتها.. يبتسم فقدًا

"لن تعود رائحتها كما كانت أبدًا بعد اليوم"..

يتجه بجلسته صوب النافذة، ويطلق العنان لذاكرته..

***

مازلت أذكر أول مرة رأيتك، لا أعلم هل كنتِ أنثى في زي طفلة أم طفلة في زي أنوثة ماردة، هل كنتِ من بنات الأنس أم جنية متأججة..

يومها لمحتك صدفة، لم تملك عيناي سوى أن تَتْبعاكِ، أخذت أَتَتَبَّعُ سيرك من بعيد، لم أكن أعلم حينها أني سوف أجابه خطر العمل معك أو أنكِ ستكونين أكبر خساراتي..

سمعت أحدهم يومها يذكرك.. وجه إليَّ كلماته:

- تلك الموظفة الجديدة.. أظن أنها سوف تعمل معك..

- تبدو كطفلة بريئة..

عقب بشكل صادم:

- ثمرة ناضجة.. نار.. حذاري منها تحترق..

على قدر ازدرائي لقوله إلا أن كلماته أثارت شيئًا في نفسي.. توقف الحديث.. قهقهنا بدافع التباهي الرجولي المفترض..

غبتِ عن ناظريَّ.. كانت رؤيتك بمثابة حجر ألقي في بحيرة قلبي.. لن تعود البحيرة كما كانت قط..

مرَّ يومان.. صخب يضرب المكان، حديث عن الموظفة الجديدة: هيئتها.. ملبسها.. ابتسامتها.. زينتها..

فجأة وهج يكسر العين.. أشرقت شمس اليوم، أشرقتِ سيدتي.. كان الإشراق هو التعبير الأدق والأقوى لإطلالتك الأولى.. كان سلامك كقطرة ندى لامست قلبي فانقلب الكون..

ارتديت حلة الوقار.. عَدَّلْتُ من جلستي لتناسب خريف العمر.. تواريت خلف الأبوة المزعومة، نظرة تشي بفحولة في حالة انفجار وهزة عنيفة أصابت القلب.. رَدَدْتُ عليكِ سلامك بقدر من الحنكة والمكر؛ فرجل احترف الحرائق لن تصعب عليه المداهنة أبدًا..

مرت الأيام.. غير أنه معكِ دومًا نكهة اليوم لا تشبه الغد.. كنت تنضجين أمامي يومًا بعد يوم، وكانت علاقتنا تتوطد كأستاذ لا يضن على تلميذته بشيء قط، أو هكذا اخترت أن أخفي عنكِ وعن الكون، الأمر.

كنت كأسفنجة امتصصتِ كل ما كَدَدْتُ لتحصيله على مدار العمر، شرهة في تحصيل العلم، لا يضاهيكِ رجل أو امرأة في إتمام أمر.. وسرعان ما تحولتِ من طفلة تتلمس خطواتها الأولى ممسكة بيدي إلى معلمة باتت تضرب عليها.. لا أستطيع أن ألوم فيكِ ذكاءك وطموحك، كما لا أستطيع أن ألوم بكِ ولهي وافتتان فحولتي..

كوني رب أسرة لم يمنعني من تدلهي بك.. تلك الشعيرات البيضاء التي بدأت تغزو رأسي وكلمة "أبي" التي تتردد على مسامعي لم تمنع القلب من الحلم..

مع كل يوم كنت تعيدين لي ما ضاع من العمر، وسريعًا ما عدت في عشقك طفلا. سحرتني إطلالتك.. أسرني كلامك العذب، ملكتِ عليَّ العقل والقلب حتى بت أنادي من حولي هذيانًا باسمك.. كنت أخفي حرجي مما أصابني بالتهكم وكأني أفتعلها عن عمد..

أعدتِ إليَّ الطفولة والشباب.. استعدت بحضورك عمرًا سلب مني بنظرة عين..آهٍ كم أنت ماكرة.. أتعلمين.. انقضى شبابي في الركض، كنت أسابق الحياة.. أجتهد في العمل وأكد.. تزوجت باكرًا كعادة هذا الوقت.. بتُّ أبًا ولم أستشعر من شبابي ما استشعرته بنظرة منك قط..

من المثير للسخرية أن لي ابنة تقترب منكِ في العمر.. يالها من سخرية موجعة، ولكن على من يعشقك أن يعتاد دروب الجنون وأروقة الخسارات المفجعة.. من أنتِ يا امرأة؟!.. دومًا مشتعلة.. دومًا موجعة..

أتعلمين.. عشقك كما الخمر يذهب العقل.. وكنت أنا سكِّيرك الذي ما انفك يتمرغ في تدلهه حتى استفاق على ألم يشرخ الروح.. يشج الرأس.

برغم كل ما كنت أعلمه عنكِ، عن كبريائك وعِنادكِ والأكثر عن استقلاليتك وصلابة التزامك إلا أنني بسفاهة عاشق توهمت امتلاكك.. أثملتني الأماني حتى جاء يوم النزال.. حدث ما لم يخطر لي يوم ببال، كان هذا أول صدام يحدث بيننا، من الصدمة والذهول أكثر مني خصم كنت شاهد عيان..

لأول مرة يتكشف غموضك عن ذاك الوجه.. وجه شرس يدافع بضراوة محارب.. أعلم كان لكِ كل الحق في ذلك وأن مثلك لا يساوَم على مبادئه قط، وأنني أنا من اعتدت الدهاء قد داهمني سيل من الغباء؛ فسلكت معكِ دربًا من دروب المحال..

كيف لم أعِ أن امتنانك لما أَشْرَبْتُكِ إياه لن يمنعك من معارضتي.. على قدر ذهولي على قدر ما خالطني تجاهك شعور بالإعجاب والحنق..

كان هذا الموقف بمثابة نقطة تحول في علاقتنا.. تحولنا من أستاذ وتلميذة إلى طرفي صراع دومًا في حالة صخب مرتقب.. أعتقد أن حضورك كان دومًا مدعاة للارتباك والقلق..

ثلاث سنوات ولم أستطع أن أعلم هل شغلت ولو للحظة تفكيرك؟!..

على كثرة ما قابلت بعمري من نساء تجيء نهايتي على يدك..!!

***

يتبسم لسخرية القدر.. يعتدل في جلسته.. ينظر لأركان مكتبها.. يضع كفه على سطح المكتب متكئًا ناهضًا في كهولة مفاجئة: "لن يعود شيء كما كان".. مغادرًا يطفيء النور ويغلق الباب..

موناليزا

على أعتاب الشّتاء، قبيل الفجر بساعات قليلة، بكل الحزن.. بكل السحر أطلّت من شرفتها.. تنعكس أشعة القمر الفضية على ملامحها.. يغمرها ضوء القمر، بشيء من السحر تشع.. تتلألأ..

بملائكية، بدفء ترنو بعينيها إلى السماء.. تحملق في هدوء لبرهة وكأنّ نفسها تحاول أن تهدأ.. دمعة تقطر من عينيها.. تواريها بلمسة رقيقة من أناملها على وجنتها.. تطأطيء رأسها..

لحظات واختفت.. أغلقت أمام انبهاري شرفتها.. أنوار مترلها كما أحلامي انطفأت. تأسرني صاحبة الشرفة.. باتت جوارحي تتلمّس رؤيتها.. شيء ما يدب بقلبي.. شعور يزداد يومًا بعد يوم..

كانت كالموناليزا، وجه لكل يوم، نظرة لا تحترف سواها عين، حتى أنها بين نهار وليل تختلف.. تتجدد بين الألوان كما لم يتأت لأنسية قبلها..

بكثير من الجهد والمثابرة أمام شرفتها، حفظت عن ظهر قلب مواقيتها.. باتت شاغلي الأوحد، وبات حلمي اقتناؤها..

في غرفتي.. على سرير الأرق أستلقي على ظهري أسامر طيفها.. أقضي لياليَّ لا تفارقني عيناها..

أتساءل لماذا كل هذا الحزن يملؤها؟؟.. لم أرَ بحياتي امرأة يكمن سحرها بدمعتها.. كلما اعتصرها الألم كلما تَأَلَّقَ نجمها..

بدأت أحوالي تتبدل.. كنت أراها فيمن حولي.. أبتسم كلما لمحت بعيون من حولي نظرها.. فجأة أصبحت الكون، وأصبح الكون كله هيئتها..

تملكتني حالة من السلام والسماحة.. تحولت من أسد دائم الزئير حاد متوحش إلى باسم الثغر معتدل المزاج.. تبدد غضبي.. توطدت علاقاتي بمن حولي.. أصبح كل من يحيط بي تعجبه رفقتي.. في عشقها توالت على قلبي النفحات.. حبها كما لسعة السقيع المنعشة أنعشت حياتي، فانتابتني حالة من النشاط والسعادة..

بعد يوم عمل شاق خرجت مع زملائي، اختلفنا أي مكان سوف نقصد.. اقترح أيمن أن نذهب إلى المطعم القابع على ناصية شارع المكتب الذي نعمل به.. لاقى اقتراحه رفضًا عامًا. اقترحت نهال مطعمًا حدثتها عنه صديقة لها دائمة التردد عليه: هادئ، راقي.. لديه مجموعة من الأغنيات القديمة لفيروز، وأيضًا أغنيات كلاسيكية أجنبية من عهد الستينيات.. لاقى اقتراحها استحسانًا لدى الجميع..

ركب كل منا سيّارته، توجهنا لذلك المطعم.. وصلنا خلال نصف ساعة.. أرهقتنا زحمة السير..

دخلنا المطعم، طلب كل منّا طلبه. طلبت طبقًا من صدور الدجاج المقلية وطبقًا من البطاطس وكوبًا من البيبسي.. جاءت الطلبات.. انهمكنا في الطعام.. كنا كمن طال جوعه لسنوات.. أنهينا طعامنا وأخذنا نتسامر ونضحك.. أذكر أني كنت أشرب البيبسي عندما اقتحم سحرها المكان..

كان دخولها المطعم يشبه أفلام السينما الأمريكية القديمة.. عندما تدخل البطلة متلألئة في معطفها مبللة بقطرات المطر، يطيّر الهواء أطراف فستانها.. تغلق شمسيتها.. تنفض قطرات المطر برقة عنها.. تبتسم للنادل في ملائكية مما ينم عن أنها دائمة التردد على المكان وأنه يعرفها.. تتوجه نحو طاولة معينة في زاوية المطعم.. تعلق شمسيتها على طرف المقعد.. تضع عليه حقيبتها.. تجلس على المقعد المجاور له...

همّت نهال – إحدى زميلاتي – بالنهوض لفعل شيء لا أعلمه، وطلبت منّي أن أفسح لها الطريق، ولكني لم أكن مهتما بأن ألبي طلبها في تلك اللحظة فأشرت لها أن تهدأ وتنتظر قليلًا.. تعود نهال للجلوس في استغراب وأعود لفاتنتي..

أراها بزاوية جانبية.. أتابع حركاتها.. تخرج من حقيبتها دفترًا صغيرًا وقلمًا ورديًا ذا رأس تحمل بعضًا من الريشات الوردية.. على الرغم من أنوثتها فقد كانت طفولية.. ابتسامة تباغت شفتيَّ..

يأتي النادل حاملًا فنجانًا من القهوة مع قطعة من الكيك بالشيكولاتة الشهية يرافقهما كأس من عصير البرتقال.. لم تتكبد عناء الطلب.. أحضر لها النادل مطلبها بعد دقائق من جلوسها.. كان كلُّ من بالمكان يعرفها.. كان لها مكانها الخاص كما كان لها سحرها.. لها طلب محدد وغريب في تنوعه وفوضويته..

بدأت بتناول قطعة الكيك بالشيكولاتة في رقة ونهم جميل.. أشارت للنادل بعينها في دلال بالغ فذهب لفعل شيء لم أكن أعلمه، وفي غضون لحيظات عاد ونظر إليها كمن يخبرها بإتمام مهمة.. لم يمض وقت لأتساءل فيه عن ماهية المهمة فقد أنصت الجميع حين سمعنا فيروز تشدو بصوتها الحالم "حبيتك تنسيت النوم".. ابتسمت له في حنو كمن يكافئه.. عادت بنظرها إلى ذاك الدفتر الصغير القابع بين يديها، فتحته، انتقت صفحة مناسبه لما أقدمت على كتابته وقبلما تمسك بالقلم أمسكت بكأس البرتقال وارتشفت منه القليل مع الإنصات التام لصوت فيروز.. مع نهاية الأغنية كانت قد أنهت كأسها.. أمسكت بمحرمة.. جففت أطراف شفتيها في نعومة.. عادت

لقلمها والكتابة في انهماك شديد.. تارة تبتسم، تارة تدمع، تارة تتجهم.. كانت كمن يشاهد فيلمًا ويتأثر به..

كنت من التركيز معها بأن نسيت من حولي وانفصلت عنهم تمامًا.. بدأ أصدقائي يلاحظون افتتاني بتلك الأميرة الجالسة أمامي.. نغزني أيمن – صديقي – في كتفي قائلًا:

– إيه يا عم الحبِّيب.. تعرفها؟؟..

أفقت من ولهي ناظرًا إليه في حدّة معاتبة.. تركتهم دون كلمة واحدة.. توجهت إليها.. في تلك اللحظة كانت ترتشف قهوتها.. عندما باغتَّها قائلًا:

– مساء الخير.. ممكن أقعد مع حضرتك ثواني..

هالها فعلي ولم تنبس ببنت شفة.. ظلت تحملق في دهشة واستغراب شديدين..

سَحَبْتُ المقعد المقابل لها.. جلست أنظر إليها في صمت تام.. تبادلنا النظرات.. شعرت للحظة بأنني إن لم أتكلم سوف يتسم موقفي بالبله وأني بدأت أسبب لها القلق.. ابتلعت ريقي.. صوَّبت إليها نظرة ثابتة:

– أنا بشوفك كل يوم في البلكونة.. أقصد أنا جاركم.. أنا أحمد.. ممكن تسمحيلي أخد رقمك؟.. والله أنا عارف أنه موقف

سخيف وغريب.. بس أنا اسمي أحمد.. مهندس وبشتغل في مكتب للدعاية والإعلان.. عندي 32 سنة وجاركم وعايز أتعرف عليكي بكل أدب وذوق والله العظيم.. ممكن؟..

مازالت تنظر في ذهول.. أَمْسَكْتُ هاتفها الجوال وطلبت رقمي.. ظهر رقمها على هاتفي.. سجلت لها رقمي على هاتفها.. مددت يدي إليها بالهاتف حاسمًا الموقف:

– أحمد.. جاركم.. هكلمك أو كلميني ها؟.. يبقى اتفقنا

تَسَمَّرَتْ.. لم يبدر منها أي ردة فعل وكنت أعذرها فموقف مماثل لا يحدث كل يوم وخاصة مع فتاة مثلها بكل هذا القدر من الاتِّزان والجدية.

أجلس في غرفتي أنظر لهاتفي.. أعزم الأمر على الاتصال بها ثم أعود للتردد.. تارة أمسك به وتارة أتركه.. أقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا.. أتوجّه صوب الشرفة.. أنوار غرفتها مطفأة.. يقتلني الانتظار والقلق..

فجأة أضاءت أنوار الغرفة.. طيف يتحرك صوب الشرفة.. أطلّ قمر الليلة.. بمجرد أن أطلّت من الشرفة، كان وجهي يستقبلها.. تسمّرتُ أمام طلتها في ذهول وأيضًا في بلهٍ مبتسمًا.. أعتقد أنها أشفقت عليَّ من تلك الابتسامة البلهاء.. تبسَّمت في حنوٍ وخجلٍ شديدين.. أشرت لها مستأذنًا في الاتصال.. أومأت برأسها موافقةً..

قفزت فرحًا.. انطلقت إلى الغرفة.. هاتفتها.. لأول مرة أسمع صوتها.. ذبت ولهًا..

في البداية ساد الحرج الأجواء فداعبتها:

– هو أنا صاحي ولا بحلم.. القمر نزل من سماه وبيكلمني أنا.. والله مش قصدي أكسفك بس أوعدك مش هتندمي إنك رديتي عليا أبدًا.. تسمحيلي بقا أعرفك بنفسي تاني؟..

أعرفها بنفسي وتعرفني بنفسها.. يحكي كل منًا للآخر عن تفاصيل حياته وما مرَّ به.. ما يحب وما يكره.. ذبنا معا في بحور الكلام.. سهرنا يومها نتحدث حتى الفجر، كأننا عرفنا بعضنا لسنوات..

أغلقنا سماعة الهاتف مع أول ضوء للنهار.. بدلًا من النوم توجهت إلى الحمام.. أخذت حمامًا باردًا رغم برودة الجو آملًا في أن أفيق فأمامي يوم عمل طويل وصعب.. أو هذا ما تصورت!..

ارتديت ملابسي.. تأنقت.. نزلت على السلالم وثبًا كأيام المراهقة.. رافقتني أغنية أم كلثوم "سيرة الحب" طوال اليوم وخاصة كوبليه (وقابلتك انت لقيتك بتغير كل حياتي).. كنت أحلِّق، لا أمشي على الأرض.. داعبت كل من حولي.. شاكستهم.. كان أحلى يوم، ولكن دومًا معها كان الأحلى لم يأت بعد..

مرّت أيامي معها في لهوٍ.. في عشقٍ.. في سحر.. بدأ حزنها يتبدل فرحًا رغم مسحة الألم التي أحيانًا ما كانت تستبد بها..

ثلاثة أشهر من الفرح، ثلاثة أشهر حب، ثلاثة أشهر في الجنَّة لا على الأرض، ورغم كل ذلك من يدي أفلتُّها..

فجأة بدأت أفقد اهتمامي بها، كنجمة صعبة المنال شببت كي أطالها وحينما حدث زهدها.. كنت كشحاذ يجلس على شاطيء البحر ناظرًا إلى السماء وإذ بسيارة مرسيدس تهبط له، فإذا به بدلًا من أن يشكر يفكر لماذا لم تكن بدلًا من المرسيدس سيارة بي إم دبليو.. ظللت أركض خلفها حتى أدركتها وحينما تَمَكَّنْتُ أفلتّها.. انتهي الأمر فجأة دون مقدمات أو مبررات منطقية..

بدأت أتلهّى بحياتي مرة أخرى.. بتُّ أهملها وقليلًا ما كنت بمهاتفة أذكرها، وتدريجيًا انقطعت عنها.. كانت قد هاتفتني بضع مرات في باديء الأمر ولكنها توقفت أمام هربي منها..

مرَّ شهران كاملان.. كنت أجلس مع أصدقائي في مقهى على البحر.. حين سألتهم عن سبب تغيب صديقتنا "نهال" عن العمل؛ فأجابني "أيمن" بأن أقرب صديقة لها في المشفى وأنها تعد في أيامها الأخيرة من الحياة، وبالتالي فهي لا تستطيع سوى أن ترافقها..

لا أعلم لماذا ذكّرني ذلك بها.. تركت أصدقائي وعدت إلى المترل، خرجت إلى الشرفة بعد هجر دام شهرين كاملين.. انتظرت خروجها في موعدها ولكنها لم تأت..

مرَّ أسبوع وأنا في انتظارها.. أحاول مهاتفتها ولكن لا سبيل للوصول إليها.. إما أنها لا ترد وإما تجيبني والدها؛ فأغلق السمَّاعة في وجهها..

استبد بي القلق.. كاد رأسي ينفجر من الأسئلة.. قتلتني الحيرة.. أظلمتُ غرفتي وجلست مستلقيًا تحت الشرفة، أنظر للسماء.. رأيت وجهها يشعل القمر.. ابتسامتها.. تفاصيلها.. تبسَّمت وأغمضت عينيّ على حبها.. فجأة أفقت على غدري بها، على وقوفي عاجزًا أمام تساؤلاتي لماذا فعلت ذلك؟!.. لا أجد سببًا سوى أنه استبدَّ بي غروري.. شعرت بتملكها وضعفها أمامي فأضعتها..

صمتُّ لبرهة.. صرخت في رعونة من توصل لجواب عن جُل أسئلته "يحبها.. والله العظيم يحبها".. نهضت لأهاتفها.. عزمت على أني سوف أنزل وأطرق بابها إن لم تُجبْ..

اتصلتُ.. رنَّ الهاتف.. لا أعلم لماذا تلك المرة بالذات عن يقين انتظرت صوتها.. انفتح الخط.. آلو..

صمتُّ لبرهة.. هذا ليس صوتها.. نهال؟!

خلفية من الصراخ والبكاء الشديدين.. صوت نهال يبكي:

– "حياة" ماتت يا أحمد.. ارتحت.. ماتت خلاص.. ماتت يا أحمد..

انقطع الخط.. سقط الهاتف من يدي.. ارتميت على الأرض في حلكة الغرفة.. ظللت جالسًا على الأرض في ذهول.. "ماتت!!!" ماتت "حياة"، وماتت حياتي معها..

بعد أشهر من الانقطاع عن الحياة والعمل، قررت "نهال" أن تزورني؛ فوجئت بها أمي تطرق بابنا.. رحبت بها وأدخلتها إلى غرفتي.. كادت أمي تفتح ستائر الغرفة بغية الضوء من أجل الضيفة ولكني رفضت.. تركت أمي باب الغرفة مفتوحًا وغادرتنا..

جلست "نهال" أمامي تتأمَّلني.. صمتت طويلًا ثم حدثتني:

– كنت عارفة كل حاجة.. كانت بتحبك بجد..

أنظر إليها بحزن وانكسار.. تردف:

– أنت كنت آخر أمل لـــ "حياة" في الحياة.. كانت عارفة إنها مسألة وقت قبل ما يخطفها الموت.. كانت بعيد عن العالم وأنت اللي قربت.. فاكر يوم المطعم.. أول ما شفتها قمت أسلّم عليها بس انت مرضتش تعديني.. نظرة عنيك لها لجمتني..كنت عارفة إنّك قاسي

مبتعرفش تحب بس نظرتك خلتني افتكرت إنك اتغيرت.. أو يمكن أملي إنها تفرح هو اللي خلاني سكتّ..

طأطأت رأسي خزيًا.. انهمر من عيني الدمع.. أكملت كلماتها:

– معاك عرفت معنى الحياة.. معاك عرفت يعني إيه حب.. ليه بعدت؟!.. ليه استعجلت النهاية؟!.. هو بالسهل كده إنك تكسر قلب؟!

أجهش في البكاء ألمًا.. يختنق صوتها بالبكاء.. تختم حديثها:

– أنا مش مستنية منك رد ولا جاية أعذبك.. كل اللي جيت أقولهولك إنها كانت بتحبك بجد وإنك لو مكنتش أد حبها ده في حياتها لازم تحترم حبها في الموت.. لازم ترجع أحمد اللي حبته.. إرجع لحياتك وصحابك وشغلك.. قبل ما تموت وصتني أقولك إنها بتحبك وإنها مسامحاك.. بتقولك هي هتطمن عليك من مكانها.. اختار أحلى نجمة في السما وتخيلها دايما متبعاك.

كان لكلمات نهال وقع كبير عليَّ.. عدتُ بعد التيه إلى العمل أو عاد طيفي.. أكملت حياتي.. بعد فترة من الوقت تزوجت وأنجبت، بالطبع لم أجد مثل "حياة ".. كانت أنثى ذات مذاق خاص.. كانت تلك الفوضى المنظمة.. كانت "حياة" أشهى وألذ أنثى في الحياة..

لم تقف الحياة ولكنها توقفت بقلبي عند "حياة".. باتت كل شرفة أطل منها نافذة تطل على سحرها.. كل نجمة تتلألأ تحمل بسمتها.. كل قمر يعكس وجهها.. قتلتها ألمًا فقتلتني عشقًا.

***

حادثة قدر

كان يشاهدها من بعيد.. احتفظ بتلك المسافة بينهما فكما مسافات المكان هناك مسافات العمر.. أيهما أخلف موعده؟!.. لا يعلم.. سادت المسافة المشهد فبينهما مسافة قدر تحكم الأمر..

كان يكتفي منها بالنظر.. يكتفي بنسيم حضورها.. حفظ عن ظهر قلب بصمة عطرها.. أيقظت بركانه.. لازمت أحلامه.. زلزلت ما عمل على بنائه على مر العمر..

ظل يراقبها.. يتربص بها.. لم تراوده أحلامه ليلًا فقط بل باتت أحلام يقظته منه تسلبه.. أعادته لعمر المراهقة لمضمار ارتحل عنه دون أن يغبِّره.. ملكت عليه القلب والعقل فاتّخذ قرارًا بالنزال.. قرر أن يخوض معركته معها ففي كل الأحوال قلبه بات لها، ولكن كيف ذلك؟! لم يعلم كيف يخاطبها؟!.. كيف يتودد إليها؟!.. فقط لو تعلم كم يعنيه قلبها..

كان ينازل خصومه بضراوة ويفوز عليهم فقط بين أروقة المحاكم.. ولكن على أرضها كانت مجرد فكرة نزالها تربكه.. بكل

الأحوال باتت قضيتها شاغله الأوحد كطرفي نزاع بات عليهما النزال فإما أن يفوز بها وإما أن تهزمه..

كيف يصل إليها؟!.. لا مجال للقائهما سوى في أمور رسمية فما بالك بلقاء يخصهما.. بات يتتبع أخبارها مع الحفاظ على تلك المسافة بينهما.. بات يتربّص بتحركاتها.. لم يرق قلبه سوى لها ورغم تربصه بها كان في واقع الأمر فريستها..

كانت دائمة الانشغال، دائمة النشاط.. هناك طموحات دومًا تتطلع إليها، ورغم انشغالها فقد كانت من الذكاء أن تلاحظ ظهوره الدائم.. دومًا كان له حضور صامت طاغ في روعته.. لم تلق بالًا للأمر في بادئه ولكن تكراره لفت نظرها.. بدأت ترى تربصه بها.. كيف يرمقها خفية ومتى في وقار يتبسم لها.. من هذا الرجل؟ ولم هو مهتم بها؟!

مر الوقت تارة له وتارة لها.. لم يعكر صمتهما شئ فكلاهما يعلم من الدنيا موقعه..

ظل سجين سؤاله.. كيف الوصول لها؟.. طرق رأسه كثيرًا حتى كاد يرطمها بالحائط لتؤتيه حلها.. آه وجدتها!!

إن لم يكن في الواقع من مجال ليبثها مكنون صدره فعليه أن يبحث عن واقع موازٍ يجمعه بها.. يبرق في ذهنه الفيسبوك، كيف أهدر كل هذا الوقت من عمره بعيدًا عنها لأنه بكل بلاهة لم يفكر في البحث

عنها على الفيسبوك.. أخيرًا سوف تسعده الظروف ويختلي بها حتى وإن كانت الخلوة على شاشة صماء تحمل لها صورة صامتة.. أسرع بالجلوس إلى مكتبه.. فتح جهازه، كتب اسمها وضغط زر البحث.. أخذ ينقّب بين الأسماء والصور.. بحث وبحث، ولكن بحثه لم يلق نتيجة حاسمة فالتجأ من بعد اليقين إلى الحصر.. أمامه عدة خيارات.. هي لم تضع صورة تدله عليها وتواجدت ثلاث صفحات شخصية تحمل اسمها.. أيُّهم هي؟! لا يعلم.. تحيَّر للحيظات، ثم أدرك أن عليه أن يلتجيء لحدسه وآمل أن يدركها بقلبه..

أخذ يبحث في التفاصيل.. راهن على أنه سيعرف أيُّهن هي، وإلا لن يكون جديرًا بها.. شيء ما يميز إحدى الصفحات عن مثيلاتها.. لفتت نظره صورة لسيدة شابة في رداء أبيض ترقد على أرجوحة شاخصة بعينيها إلى السماء وكأنها ترتاح من شيءٍ أو تنتظر شيئًا؛ فتذكر يومَ مرَّ أمام مكتبها وكانت تجلس بجانب الشرفة تحمل عيناها نفس النظرة ويتملكهما نفس السهوم. يومها وقف يرقبها حائرًا هل هي على انتظار أم مُوَدِّعَةٌ.. أغمض عينيه.. امتلأت مخيلته بعبق صورها.. شيء ما يخبره أنها هي.. عزم الأمر وبعث لها بإضافة.. تلك المرة لم يتحير ولم يتردد كان حدسه يقيني عندما أضافها أو هكذا كان يرجو.. فعلها وانتظر.. لم يُضِرْه الانتظار تلك المرة فإن صدّقه حدسه باتت مسألة وقت ليصبح بعالمها عالمًا بها..

في الصباح الباكر كانت تتأهّب ليومها بطلتها الواثقة، بنظرتها الثاقبة، بكل السحر.. جلست ترتشف قهوتها أمام الشرفة.. فتحت جهاز اللاب توب الخاص بها.. جلست تتصفح بريدها الإلكتروني وصفحتها على الفيسبوك سريعًا.. خانة طلب الصداقة تحمل علامة إضافة واحدة.. تستغرب: من قد يضيف امرأة لا شاغل لها سوى عملها؟!.. ترى صورته فتتملكها دهشة أكبر بجرأته فلا شيء يجمعه بها.. تعتلي شفتيها ابتسامة المنتصر.. كلمات تتردد داخلها:

"ألم أخبرك أنه يهتم بك.. فقط كان ينتظر"..

تهزّ رأسها رافضةً وكأنها تطرد وساوسها وتنفض عنها ظنونها.. هي تعلم أنه متزوج.. لماذا قد يتودد لها؟!.. بالتأكيد أساءت فهم إضافته.. هل ترفض؟!.. لماذا لا تقبله على أي حال فهو زميل عملها.. تتردد قليلًا ثم تضغط زر القبول.. باتت بضغطة زر داخل عالمه.. تنظر إلى الساعة:

"يا إلهي سوف أتأخر على العمل"..

تغلق الجهاز مسرعة.. تلملم أشياءها.. ترتدي معطفها في عجلة.. تركض لتلحق بموعد عملها..

تصل العمل في الموعد.. هي لا تتأخر أبدًا..

ينسيها العمل ما كان حتى تستفيق على صوته يستأذن بالدخول إلى مكتبها يجلس على المقعد المقابل لها.. هو لم يأت من أجلها بل أتى

في عمل تختص به زميلتها بالمكتب. يبتسم في ملائكية لا تخلو من وقار.. يبدأ في الحديث عما أتى لأجله.. يتطرق لأحاديث عن العمل والسياسة والمجتمع.. يتكشف منه جانب جديد لم تره من قبل.. مثقف رزين يمتلك وجهة نظر خاصّة به، وجانبًا آخر يداعب وجدها.. لأول مرة تدقق النظر في وجهه، له جاذبيته الخاصة.. لون عينيه العسليتين يأسرها..

ما إن غادر حتى شعرت بشيء من النشوة يَتَمَلَّكُهَا.. تَهيمُ للحظات، ولكن عقلها يأبى أن يترك لقلبها المقود.. يا إلهي بدأ ضميرها في الأنين.. أيتها البلهاء كيف تجرؤين؟! أخذت تعنف نفسها على ما حدَّثها به وجدها.. قضت يومًا مضنيًا ما بين العمل والتفكير.. انقضى الوقت.. عادت للمترل منهكة مستهلكة لا تقوى على أي أمر..

على الجانب الآخر، قضى يومه في سعادة غامرة.. كانت تملأ عليه حياته لا تفكيره فقط.. جلس ينتظرها أمام شاشة الفيسبوك طويلًا.. لم تأت.. خيبة أمل كبيرة تختم اليوم.

في اليوم التالي.. مرّ عابرًا من أمام مكتبها فلم يجدها.. سأل عنها في حيلة ومكر.. أخبروه بأنها أبلغت عن مرضها صباحًا ولم تأت اليوم.

قضى نهاره قلقًا عليها.. مبعثرًا بين أفكاره، تساوره شكوكه.. هل شعرت به وترفض قربه؟! أم هي فعلًا مريضة؟! بات الأمر يربكه. مرَّ اليوم عليه طويلًا.. انتهي وقت العمل بصعوبة بالغة ولكن وقت عمله أبدًا لا ينتهي.. عليه الآن أن يتوجّه إلى مكتب المحاماة الخاص به.. ياله من يوم بغيض لا ينتهي قط..

قضى يومه مشغولًا بها، قلقًا عليها.. يتفقّد صفحتها الشخصية في كل دقيقة.. شرد ذهنه إليها كثيرًا، حتى دخل عليه أحد عملائه وهو صديق له أيضًا.. جلس أمامه يناقشه في قضيته فلاحظ شروده الشديد.. سأله عن سبب شروده فلم يعلم بماذا يجيبه.. تلعثمت كلماته وهو القدير.. شعر صديقه بأنَّ هناك طيف امرأة بالأمر.. استند على كرسيه واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى.. أشعل سيجارة.. تفرس بوجهه.. أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ثم أطلق دخّانه عاليًا، وبسخريته المعهودة نظر إليه متهكمًا:

- احكي يا اخويا.. احكي..

حكى له كلّ شيء وكأنّه غريق انتظر تلك القشة ليتشبث بها.. كيف رآها وكيف افتتن بها.. كم يسعى بائسًا للتقرب إليها.. هنا انتفض صديقه:

- مالك يا ابني محسسني إنك ابن الجيران بتحب بت من بتوع المدرسة.. أول مرة أشوفك كده يا "عمر".. يا ابني مفيش ست بتحب رجل مرمي تحت رجلها

يقاطعه "عمر" في حدةٍ:

– أنا مش كده، وأنت عارف..

– عارف والله بس لازم تتقل شوية.. راحت ولّا جت في الآخر هي ست وكل ست ولها مفتاح.. يمكن الباب يعصلج شوية بس في الآخر له مفتاح وهيتفتح..

صمت "عمر" لوهلة.. هو يعلم أنها لا تشبه سواها ولكنه يعلم أيضًا أن كلمات صديقه حقيقة واقعة..

يعود إلى بيته متأخرًا.. يدخل ليجد كل شيء في مكانه، نظيفا مرتبا كعادته أو كعادة سيدة منزله.. صوت حانٍ يسأله:

– أحضرلك تتعشى يا حبيبي؟

– لا يا حبيبتي أنا أكلت سندوتش في المكتب.. نامي أنتِ أنا هخلص شوية شغل وهنام علطول

يدخل مكتبه.. يغلق عليه بابه.. يجلس إلى درجه.. يفتحه ليخرج منه شمعة بيضاء.. يشعلها ويجلس ممعنًا النظر بها.. يداعب لهيبها بأنامله.. يشعل سيجارة يتسلل سمها إلى تفكيره محادثا نفسه:

"ضعفت؟!.. ومن هي مهما كانت علشان تضعف؟! بتحبها؟! يلعن أبو الحب يا عمر.. يلعن أبو أي حاجة هزمتك"..

تتردد كلمات صديقه بمخيِّلته:

"كل ست ولها مفتاح.. صعبة ولا سهلة مسير بابها يتفتح"..

شيء من التحدي يجتاح خلجات نفسه.. شيء ما عكر مكنون صدره لها.. أحكم السُّم قبضته.. يطفيء نيران الشمعة بلهيب جوفه.. تظلم الغرفة كما أظلم قبلها داخله..

باكرًا استيقظ مختلفًا.. لا تعلم هل فتر أم بات ماردًا.. شيء ما طرأ على طلته.. دقت ساعة العمل.. في تمام هندامه، متعطرًا، بكل رجولته متجبرًا..

لمحها من بعيد.. تعمّد أن لا يظهر أمامها.. على مدار أسبوع كامل راقبها دون أن يحتك بها من بعيد أو من قريب.. بشيء من الخبث خالطته حنكة أحكم تجنبها.. انقلبت الأدوار فجأة.. باتت هي من تبحث عنه.. بات يتلذذ بنظراتها الباحثة المتلهفة.. طوال أسبوع كامل أكلتها تساؤلاتها.. أين اختفى؟! ولماذا؟! ماذا حدث له؟! افتقدته كثيرًا.. في خضم التساؤلات وعلى مدار الأسبوع تربص بها.. تحيَّن اللحظة المناسبة.. باغتها حينما لم تتوقع ظهوره..

كانت في مقابلة مع أحد العملاء.. أنهت المقابلة.. توجهت لدرج الملفات لتضع الأوراق بالملف الخاص بالعميل، وإذا بصوته يخرجها من بين أوراقها:

- صباح الخير.

ترد بلهفة لا تخلو من وقار.. تفضحها نظراتها:

– صباح النور.. أخبار حضرتك..

يرد في هدوء شديد مبتسمًا

– كنت بخلص شغل وقولت أفوت أسلم عليكم.. بعد إذنك..

يهمّ بالانصراف عنها.. يدير ظهره لها فيأتيه صوتها تائهًا متهدجًا:

– طيب.. حضرتك مش هتتفضل تشرفني وتشرب معايا قهوة.. عندي بن محوج ممتاز.. أكيد هيعجبك

يلتفت إليها مرة أخرى متمتمًا:

– أكيد هيعجبني..

يتهلّل وجهها وتحمرّ وجنتاها خجلًا..

جلسا لما لا يزيد عن الخمسة عشرة دقيقة، لسن بالوقت الكثير ولكنهن كنّ كافيات لخلق حالة من التناغم بينهما.. كلاهما اختلق الأعذار ليلتقيا.. تنحّت الرسميات جانبًا وتصدّرت الصداقة المشهد.. تبادلا أرقام الهواتف، وخلف أستار الصداقة ذابت الحدود وكثرت المهاتفات.. تناقشا.. تداعبا.. تبادلا الرأي في شتى مجالات الحياة.. تشاركا الاهتمامات.. بات هناك مجال ليطلب منها ما انتظره لأشهرٍ وعدَّ لأجله الأيام والساعات.

في إحدى مكالماتهما كانا يتحدثان عن التصوير ومدى حب كل منهما له.. استطردا في الحديث فذكر لها أن "المنتزه" من أكثر الأماكن المحببة له وأنه يمتلك لها ألبومًا من ألف صورة.. أخبرته عن ولعها بهذا المكان وكيف أنه يأسر روحها.. صمت كلاهما لبرهة.. كلاهما خالجه نفس الأمر "حان وقت اللقاء".. استجمع شجاعته وطلب أن يلقاها هناك بحجّة أنّه يعرف أماكن يجزم أنها لم تزرها من قبل.. تصمت قليلًا مترددة متخوفة، تغزوها حمم الشوق تدفعها دفعًا للموافقة.. يقاطع ترددها

– إذًا هل يوافقك الغد بعد العمل.. سوف أنتظرك هناك أمام بوّابة القطار من الداخل.. اتفقنا؟..

تصمت.. يلحظ ترددها وارتباكها... في حنو وترفق يطمئنها "متخافيش".. في مرح وخفة مؤكدًا عليها "ها اتفقنا؟"..

تبتسم.. تهزّ رأسها معلنةً الموافقة؛ فيعيد عليها كلماته "ها.. اتفقنا؟".. ترد في حدّة مرحة: "ما قولنا أيوة.. اتفقنا".. يضحك مجلجلًا "قولتوا؟!.. قولتوا ازاي يعني؟! وبعدين لو سيادتك هزّيتي راسك موافقة هشوفك أنا إزاي عالتليفون؟!".. يضحكان.. ينهيان المكالمة بشيء من المرح والسعادة الغامرة.

في اليوم التالي، استيقظت على صوت أذان الفجر.. استبشرت.. توضأت.. صلّت.. دعت ربها أن يلهمها صواب أمرها.. سلّمت..

أنهت في خشوع ويقين صلاتها.. نهضت لتعد قهوتها.. وضعت أسطوانة فيروز ليحلو اليوم بصوتها.. وقفت أمام خزانتها لا تعلم أي أرديتها تختار.. "الأحمر" لونها المفضل ليوم مميّز.. تخرج بلوزتها الحمراء وبنطالها الجينز قاتم الزرقة.. ترتدي قلادتها ذات الزهرة الزرقاء.. تحدِّد شفتيها باللون الأحمر وتمر عليهما بملمع الشفاة الشفاف.. تطلي أظافرها بملمع الأظافر.. تلف عليها حجابها "أزرق تتخلله تموجات حمراء".. تنظر لنفسها في المرآة.. تبتسم في سعادة وانطلاق يخالطهما حياء يشوبه استنكار.. ترتدي حذاءً أزرق يعلو عن الأرض بثلاثة سنتيمترات.. تجتذب حقيبتها الزرقاء.. تنظر لساعتها "يا إلهي ساعة كاملة لأبدو هكذا.. أمال لو كنت زي باقي البنات".. تبتسم وتنطلق للعمل..

كانت بدايات يومه تختلف قطعًا عمّا كانت عليه بداياتها.. أخرجت له زوجته كعادتها حُلّة مناسبة كحلية اللون وربطة عنق تحمل اللوني الكحلي والأحمر تتخللهما خيوط فضية.. راعت هندامه جيدًا.. عطّرته.. تفوّقت في تحضيره للقاء سواها على غير علم منها بمراده.. قبّلت جبينه.. قبّل يديها.

يخرج من المترل في قمة بهائه معتدًا برجولته.. يركب سيارته السوداء اللامعة.. يصدح صوت مشاري بن راشد داخل سيارته بآيات الله..

يمر عليهما يوم العمل طويلًا في انتظار لقائهما.. لم يتصادف أن يريا بعضهما ذلك اليوم.. ينتهي اليوم.. يركض كل منهما للقاء الآخر في لهفة واشتياق..

تستوقف تاكسي من أمام العمل ليقلها إليه.. تنزل أمام بوّابة المنتزه.. تضطرب أنفاسها.. ترتعش أوصالها.. خطت إليه بدقات قلب مرتعشة وأنفاس متهدجة.. لسنوات طويلة لم ترتكب هذا الفعل.. لم تحب!.

مع كل خطوة كانت تراود نفسها على العودة.. مع كل خطوة أخذت تعنِّف نفسها: هل نسيت من نحن؟!.. أما كبرنا يا قلبي على ترهات الشوق؟!.. ماذا عساهم يقولون عنَّا إذا رأونا برفقة.. رجل؟!"..

ترتعب لفكرة تواجدهما سويًا.. تصمت لبرهة.. يراودها سؤال أهمّ.. "كيف حدث أن نسينا حرارة اللقاء في زخم العمر؟!"

رأته من بعيد.. كان يجلس داخل سيارَته منتظرًا إياها.. هل رأته فعلًا؟!.. نعم فعلت، ولكنها تظاهرت بغير ذلك، أخرجت هاتفها للاتصال به، وكأنها لم تره في محاولة فاشلة لإخفاء خجلها..

التقاها في قمة بهائه، في قمة نضجه وروعته.. كاد يلتهمها بنظراته من خلف نظّارته الشمسية.. جلست بجانبه على استحياء شديد.. عاتبت نفسها.. "وها نحن نجلس بجوار رجل بسيارته.. يا لوقاحتنا

عساه الله يلطف بنا".. ضمَّت حقيبتها إلى صدرها.. أخذت تنظر حولها في نظرات مرتعبة عنيفة.. شعرت وكأنّ كل العيون تتجه صوبها.. كانت كمن ارتكبت خطيئة.. سار بها إلى حيث اتفقا سرًا دون اتفاق معلن بينهما.. ذهب بها إلى مكان لم تعرفه ولكنه علم يقينًا أنها ستحبه، وكيف لا تفعل وقد كان الاتفاق دون اتفاق قبل الحب جامعهما..

كان يسترق النظر إلى وجهها الرقيق.. أخذ يتفحص وجنتيها الحمراوين، شفتيها المتأجِّجتين، عينيها الساحرتين، أسرته بعقلها مرة وها هي تأسره ببراءة أنوثتها ألف مرة.. توقف بالسيارة في مكان ما قرب الشاطيء.. أطفأ محرك سيارته.. نظر إليها مشاكسًا.. بادرها مداعبًا:

- أمازلتِ مني خائفة؟!..

فأجابته بنبرة مدافعة:

- ولَم أخاف، وممن أخاف؟!. أنا لا أخشى إلا الله.

فقهقه ضاحكًا:

- نعم أعلم، ولكنكِ منذ التقينا مضطربة شاردة.

تصمت قليلًا، وكأنها تستجمع قواها الخائرة.. تنظر إليه في كبرياءٍ وثباتٍ شديدين موضحة:

- كل ما في الأمر أنني منذ فترة طويلة لم أقابل رجلًا.. كنت أعتقد أني تخطيت تلك المهاترات..

صعق لوصفها للقائهما وعلاقتهما جملةً بالمهاترات، ولكنّه علم مكنون صدرها واختلاجات شعورها؛ فترأف بها وفي حنو شديد بادرها مبتسمًا:

- إذًا هو حظي أن تعيدك إليّ المهاترات.

علمت حينها أنها أخطأت اللفظ، ولكنها أيضًا قدَّرت له الرفق في ردة الفعل.. لأول مرة يذهلها رجل بذكائه فقد أمضت عمرها تنقّب بين الأغبياء.. كانت مأخوذة بطلّته، بحنكته.. لأوَّل مرّة تقابل رجلًا مثله خارج قصور الخيال وأروقة الروايات..أخذا يتحدثان في كل شيء وعن كل شيء.. أخذا يستكشفان ما جمعهما.. كان يحدج كفيها بنظرة الملتاع رغبةً.. شهوةً.. والأهم شوقًا.. ودَّ لو لامسهما ولكن علمه بتفكيرها.. بشكوكها.. حتى بقناعاتها وخوفها من ربها جعله يتراجع عن فكرته..

أخذ يلقي بالنكات كطفل صغير.. أخذا يضحكان.. يتداعبان.. ساد السحر بينهما.. تسابقا حتى تلك المقصورة الخشبية القابعة على جانب الطريق.. وقفا عندها، ولعلمه بولعها الشديد بالشيكولاتة ولولعه هو الآخر بها، طلب كوبين كبيرين من الشيكولاتة الساخنة..

أخذا كوبيهما وجلسا على سلمٍ مواجه للبحر.. أخذا ينظران للبحر في تآمر مبهم بين الصمت وحبهما، كلما ودَّ أحدهما لو تكلَّم جذبه إلى الصمت شيء خفي.. وفجأة وفي ذات اللحظة اتخذا قرارهما، ودون مقدمات التقى كفاهما في عشق.. مالت برأسها على كتفه.. كانت تختطف لحيظات من العمر تستريح فيها من عذابات الدنيا، وكان هو يستمتع بعمر لم يَحْيَهُ.. علّها الدنيا قررت على غير عادتها أن تهديهما لحظات من الفرح.. كان كل منهما يتعذّب داخله.. كلاهما يعلم أن حبهما منقوص.. حبّ بين متزوج وعذراء هو حب محكوم عليه بالإعدام مسبقًا..

انشغل عن الكون بها.. كلما فكر بأسرته، حدثته نفسه:

"كفاهم منك ما أفنيته وتفنيه من عمرك وحياتك، أنت لم ولن تقصِّر في حقهم.. لا يعنيهم ذلك الركن الخاص بك.."

ظلَّت مشتتة بين لحظات اشتاقتها وبين مشاعر وعذابات ملأتها.. في جسد لسواها اكتفت منه بركنٍ بالقلب..

ظلّا هكذا لساعات، وداخل أروقة أحلامهما بمساحة مظلّلة بالخيال.. تداعبا.. تعانقا.. نهل من شهد ثغرها ألف مرة.. ذابت بين يديه.. جلست تحت قدميه بمكر هرّة.. أرهقهما الخيال حتى تَدَلّهَا.. قليل من الخيال لا يضرّ بقلوب أرهقها الفراق، أرَّقها العقل..

داخل صومعة حبهما، كانت تنتظره ظمأى ليهاتفها بجنون العمر.. اكتفت منه بمهاتفة يومية رغم أن ظمأها لم يرتو بعد.. في العمل تبادلا النظرات خلسة، وخارج حدود الرسميات والمقبول التقيا كلما سنحت لهما الفرصة.. ظلا هكذا حتى التاع جسداهما.. زأرا رغبة.. كانت تكبح رغباتها تكبلها.. تستعين على نفسها بصلاتها..

ظلّ يكبح نفسه عنها طويلًا .. ظلّ يفكّر بها، بالعواقب، حتى استبد به ظمؤه وأرهقته رغباته.. انتفى العقل.. لم يعد يعنيه شيء سوى أنه يريدها..

التهبت مكالماتهما قليلًا.. كانت تزيده زهوًا ونشوة.. تغذّي رغبته بها، وكانت نشوتها وقتية.. عَلَت أنات ضميرها، فتارة انتشت وتارة تألمت.. هيَّ الأخرى ترغب به ولكنها تعلم أنها إن فعلتها أغضبت ربها وانتهى كل شيء..

وفي إحدى مكالماتهما وفي خضم الشوق وأمام إصراره بكت.. هاله بكاؤها وارتعب:

– ما الذي حدث.. لماذا تبكين حبيبتي؟!

صمتت طويلًا وهو يستجدي ردها.. تنهّدت متألمة:

– لابد أن نفترق.. لا يمكن أن تستمر علاقتنا هكذا..

ارتعبا من وقع القرار..

في تحدٍّ وغضب من قدرها على النطق بقرار مماثل

– أنت شايفة كده..

في وهن تجيبه

– أنا بحبك.. بس أنا ضعيفة أوي أدامك يا عمر وبجد مبقتش قادرة.. مش هينفع نتجوز ومش قادرين نقرب يبقى لازم نبعد.. غصب عني يا عمر.. والله غصب عني..

يحاول أن يهدأ.. لا يعلم ماذا عليه أن يخبرها لتتراجع عن قرارها.. يلفّهما الصمت والتيه لبرهة.. تتمتم بالسلام لتغلق الخط، وقبل أن تكمل سلامها يقاطعها باندفاع:

– وليه منتجوزش؟

تتملّكها الدهشة أمام قراره.. تنفرج أسارير قلبها قليلًا، ولكنّها تتذكر أسرته..

– بس إزاي.. ومراتك وأولادك هتقولهم ايه..

– إزاي دي بتاعتي.. بس خليكي معايا..

تنهّدت تنهيدة أحرقها الشوق، وتنهّد وكأنّه تخطى لتوّه خطر الموت..

في باديء الأمر لم تستسغ فكرة كونها سوف تصبح زوجة ثانية.. هي لم تتخيل نفسها في هذا الوضع قط.. تارة تفكر: أنّى لها أن تظلم

امرأة مثلها؟!.. كيف لها أن تهدم بيت لسواها أو حتى تكون سبب لدمعاها، وتارة تخبر نفسها أن الله في عليائه شرع الزواج للرجل مثنى وثلاث ورباع؛ فكيف على ضآلتها أن تعترض على شرع الله.. تقلّبت كثيرًا بين هذا وذاك، ولكن عادة الحب ينسف جل مباديء المرء.. بدأت تقنع نفسها بكلّ ما لم تتخيّله يومًا.. بكل ما لم تستسغه، حتى أنها وجدت في وضعها الجديد أو ما ستصبح عليه فوائد ومميزات.. مرّت أيامهما مجنونة مترقبة.. فتّحت له أبوابها.. نهل من ثغرها، تعاظمت رغبته بها كما تعاظمت رغبتها في زواجه منها.. وحينما كانت هي تنسج خيالاتها وتحادثه عن زواجهما يومًا بعد يوم.. كانت تولّد داخله شعورًا بالاختناق.. نطق بقرار لم يحسب له عواقب فقط لتهدأ، فقط لرغبته بها.. أكان كل ذلك حبًّا أم رغبةً؟! لم يعنه الآن الفرق.. بات يشعر بأحلامها تحاصره.. شعر بأن مشاعرها وخيالاتها تحكم الوثاق عليه.. وأخيرًا أحس بأن كلماتها تقتله.. ممزق هو بين بيته وزوجته الحنون من جهة وبينها من جهة.. بين تفاهم بات يلعب دورًا ثانويًا في علاقته بزوجته، وبين كل ما يجمعه وإيّاها من اهتمامات وتفاهم عَمَّقَ علاقتهما.. فكر كثيرا في أطفاله وما سيحدث لهم.. ما سوف تكون عليه نظرة المجتمع لجميعهم.. ظلّ يطرق رأسه بيده.. ود لو حطّمها وأخرج منها كل ما يثقله.. لم يعرف ماذا يفعل ولماذا حدث كل هذا؟!..

تردد هذا السؤال بداخله في قوة وعنف؛ فلاحت أمامه صورة زوجته، كانت دومًا تلك الرقيقة الحنون.. ولكنها لم تعد تتفهمه أو لعلّ نضجه تخطّاها وتركها خلفه ترعى أطفالها.. بحياته امرأتان وكلتاهما ظلمها..

ماذا فعل بنفسه؟!.. أكان يستصعب فكرة أن تهزمه امرأة.. اليوم يصعب عليه مواجهة إحداهما بما سوف يصبح عليه حالها.. كاد التفكير يودي بحياته، وأخيرًا تأكّد أنّه لا يستطيع أن يواجه زوجته بخيانته.. خيانته؟!.. نعم هي خيانة.. نزوة لا يجب أن تتخطى كونها مجرد نزوة.. اتخذ قراره في الحفاظ على امرأة بنسف أحلام الأخرى. أمسك هاتفه.. حادثها في كلمات مقتضبة

– أود أن أراك.. اليوم في تمام السادسة..

استغربت طلبه المفاجيء ولكنها لبَّت رغبته فهي ما عادت تقابل رغباته بالرفض.. تقابلا.. كعادتها به مولعة، وعلى غير عادته كان صارمًا متجهمًا.. كانت كالطفلة تبثه حبها، وعلى غير عادته كان باردًا فاترًا.. قاطعها مباغتًا:

– مش هقدر..

قابلت كلماته باستغراب:

– تقصد إيه؟!..

نظر إليها في حدَّة

- افهمي بقا.. مش هينفع نكمِّل.. مش هقدر أجرحها.. مش هقدر أواجه أهلي والمجتمع.. مش هقدر.. أنا آسف بس لازم نسيب بعض..

ظلّت تحدِّق به.. وجدت نفسها تخرج من سيارته راكضة إلى حيث لا تعلم أو تعي.. كانت تبكي بكاءً حارقًا.. حاول أن يتبعها، ولكنها اختفت في العدم.. هامت على وجهها لساعات حتى أعادها قدماها إلى بيتها.. قضت ليلة ظلماء صامتة.. تبكي دون دموع.. تبكي على كل ما تنازلت عنه.. كل ما تربت عليه.. جل علاقتها بربها، وكيف هانت عليه واستباح طعنها.. اليوم انكسرت تمامًا..

في الصّباح التالي، على غير عادتها منذ تعارفا أيقظها أذان الفجر بعد غياب طويل.. غادرت فراشها متهاوية.. لم تكتف بالوضوء اليوم بل اغتسلت لعلَّ اغتسالها يطهّرها من خطاياها.. يخلّصها من عذاباتها.. ارتدت إسدالها.. وحينما شرعت في الصلاة انهارت باكية.. بكت كما لم تبك أبدًا.. سجدت لله متضرِّعة أن يتقبل توبتها، أن يطبب قلبها، اليوم علمت أنه الجبَّار، كسرها لتعود إليه.. تضرَّعت إليه ليجبر ضعفها.. سلّمت في خشوع ورضا بقضاء الله مستغفرة.. همّت لترتدي ملابسها وتتوجه لعملها..

في الاجتماع الصباحي كانت عيناها تبحثان عنه.. لم تره.. علمت فيما بعد أنه طلب إجازة لأسبوعين.. هل يتألّم مثلها؟! هل ما زال يحبها؟!.. تساءلت كثيرًا فعادت أدراجها خائبة..

وهنت كثيرًا ومرت أيّامها مؤلمة.. عاد من أجازته الطويلة.. تقابلا في ممر بين قسميهما.. التقت أعينهما فتخطاها وكأنها سراب أمامه..

اليوم علمت أنها ماتت داخله.. كان عمر معاناته يحتسب بالأيام.. كانت له أسرته وعمله الخاص.. كانت له حياته الخاصة وكونه الموازي.. وكانت معاناتها عمر بلا حياة.

الحب المستحيل

أنا أكره القهوة الجاهزة.. أكره كل ما هو سهل.. أحبّها تقليدية الصنع رائحتها دون إضافات نافذة، وجه سميك، قاتمة.. تميل للمرارة إلا من نفثة سكر ..

أكره اللون الرمادي الباهت.. تغريني الألوان، لا تستحوذ عليّ.. قدري.. أدركت يقيني في مرحلة ما: حادّ الطبع.. ديكتاتوري الهوى.. الوسطية ديني، أحببت مرة وبعدها لم أجد في أنثى واحدة ما يغريني.. تزوّجت زواجًا تقليديًا يتناسب وتوقيت مدينتي إلا أنه لا يغطي خارطتي.. زواجًا قد لا يكون كافيًا ولكنه كفئًا لمترلتي ..

كل شيء في موقعه مرتب، منظم.. منظومة لا يشوبها شائبة، حتى وقعت عيناي عليكِ.. صدفة ارتطمنا كشهابين محدثين فوضى يستحيل بعدها للكون أن يستقيم .. التقينا.. إذًا في الكون أنثى تسترعي الانتباه ..أنتِ .. أنتِ

لا أعلم كيف وأنا القدير أحلتني لطفل يتقافز حولك.. وددت لو أحطتكِ بسياج وطوّقتك بذراعي.. وددت لو أخفيتك داخل صدري

فلا ينفذ إليك بشر ولا تطلّين إلا من خلف حجاب.. لطلتك حضور يجعلني حد الموت أغار عليكِ..

لستِ الأجمل أو الأروع وعلى الأغلب لستِ الأذكى أو الأعذب.. فقط كيان يحمل قدرًا من كل شيء فتميزت وتفردت.. ورغم الحضور جذبتك؛ فرقصت.. تراقص قلبانا.. ثم أفلتُّك فأرخيتِ النظر ورحلتِ.. ظل عبيرك يداعبني وبلمسة سلام تركتِ بقلبي ما تركتِ..

عودة إلى الواقع.. انتشاء..

داعبت طفلي وقبّلت امرأتي.. تناولت معهما العشاء، وناما فصعدت لقلعتي الشاهقة، وحيدا إلا منكِ..

مولع بدرويش أنا.. ذاك الفلسطيني الثائر.. كلانا يشبه الآخر في شموخه وعنفوانه، اعتليت عرش وحدتي واستمعت لرائعته "هو وهي" بإمعان

هِيَ: هل عرفْتَ الحبَّ يومًا؟

هُوَ: عندما يأتي الشتاء يُصيبني شغفٌ بشيء غائبٍ، أُضفي عليه الاسم، أيّ اسمٍ، وأنسى ...

هي: ما الذي تنساه؟ قُل

هو: رعشةُ الحمَّى، وما أهذي به تحت الشراشف حين أشهقُ: دَثِّريني

هي: ليس حُبًّا ما تقول

هو: ليس حبًّا ما أقول

هي: هل شعرتَ برغبة في أن تعيش الموت في حضن امرأة؟

هو: كلّما اكتمل الغيابُ حضرتُ... وانكسر البعيد، فعانق الموتُ الحياةَ وعانَقَتهُ... كتوأمين

هي: وأتّحدْتَ بها، فلم تعرف يديها من يديك وأنتما تتبخّران كغيمةٍ زرقاء لا تَتَبيَّنان أأنتما جسدانِ... أم طيفان.. أَم؟

هو: من هي الأنثى – مجازُ الأرض فينا؟ مَن هو الذَّكرُ – السماء؟

هي: هكذا بدأتْ أغاني الحبّ. أنت إذن عرفتَ الحبَّ يومًا !

هو: كلّما اكتمل الحضورُ ودُجِّنَ المجهول... غِبْت

هي: إنه فصل الشتاء، وربُّما أصبحتُ ماضِيَكَ المفضّل في الشتاء

هو: ربّما... فإلى اللقاء

هي: ربّما.. فإلى اللقاء !

أخذت أسترجع ملامحك.. نظرات عينيك.. متى توهجت ومتى خجلي سكنت..كيف تحدثنا صمتًا بالعيون وكيف بي تشبثت..

وكأنكِ ولدت من رحم قلبي.. كينونة خلقت من دمي وعاطفتي..

فريدة ولكن بحضوري تألقتِ ..

ومن فرط ثمالتي بكِ.. حضرتِ..

سألتك: هل تنتهي حكايتنا عند هذا الحد؟..

أجبتِ: ربما .. هل تسمح لها أن تنتهي عند هذا الحد؟

صمتُّ.. فأردفت: استمع لقلبك وربما.. فقط ربما.. وتبسمتِ ..

***

لكلّ لقاءٍ رهبة تسبقه، وكان هذا لقاؤها التليفزيوني الأول.. آثرت أن تبدو كالزهرة فيه.. تنورة بيضاء وقميص أبيض مرصّع ببتلات وردية يتوجهما وجهها بعينيها اللامعتين وشفتيها الدقيقتين..

خطت إلى لقائها مضطربة قلقة حتى وقعت عيناها عليه.. كيان وقور، وجه باسم، عينان ثاقبتان، وفم منمق تحيطه هالة نور جذبتها إليه.. علمت أنه من سيحاورها فزاد اضطرابها لولا بسمة من شفتيه بعثت بنفسها الطمأنينة قليلًا.. تلاقت عيناهما فوقع بقلبها.. رحَّبَ

بها.. جلست أمامه.. استشعرت جلسته المهيبة، كزهرة تفتحت على أكفه ..

قدمها للمشاهدين.. أخذ يحاورها.. سألها عن حياتها وفنها.. أراد أن يجد مدخلًا ليسأل عن حياتها العاطفية فلم يجد سوى المدخل التاريخي لهذا الأمر..

– من وجهة نظرك ما الحب؟

تضحك بمكر .. يندهش من ضحكها!

–حسنًا لا تنظر إليّ هكذا.. سوف أحكي لك حكاية صغيرة تَمُتُّ لسؤالك بصلة.. أثناء دراستي الجامعية وبالضبط في إحدى محاضرات مادة السياسة.. كانت صديقتي تجلس جانبي ولم تكن من المهتمين بالدراسة.. جلست وبين يديها كتاب رومانسي تقرؤه.. وفجأة نكزتني؛ فملت عليها برأسي فإذا بها تسألني: ما الحب؟.. لم أتردد للحظة مجيبة: "الحب زي البرد لا تعرفي امتى بييجي ولا تعرفي امتى هيمشي.. الحب فيروس غريب وأحيانا بيكون قاتل..!"

يتبسم في رصانة شديدة.. تبادره:

–إذًا أجبتك على سؤالك هل تسمح لي أن أسألك أنا الآن؟..

يندهش من طلبها، ولكنه يوافق..

–حسنًا تفضلي!

– من أنت؟

– إن كان لابد من الإجابة فأنت أقدر مني عليها.. أخبريني أنت.. من أنا ؟!

أجابته متيقنة

– "أنت القمر"

ضحك خجلًا متشككًا..

– أأنا القمرِ أم أنتِ؟!

أجابته بمنطقية متبخترة:

– يا سيدي.. شاهق أنت كما القمر بالسماء.. كما انتظاري تشخص إليك الأنظار كل مساء.. في حقيقتك كما القمر جسم معتم ينتظر من الشمس الضياء.. أعلمت الآن من أنا؟!

يضحك لتبجح قد زانه منها الذكاء..

– يا فاتنة أهذا غزل أم هجاء؟!

يضحك كلاهما من حوار زانه الدهاء وعمَّه السحر..

ظلت تتابع إيماءاته، نظراته.. تتبع أسئلته وتتحرى الصدق في الإجابة عليها.. راقبت تعابير وجهه.. أتقن عرضها وفنها كساحر يتناقل فراشة بين أصابعه.. عالم هو بها وكأنها صنعت على يديه ..

انتهى اللقاء ولكن لم ينكسر السحر.. اليوم قابلت ضوءها الشارد، وكفرحةٍ في مهدها حلقت في سمائه.. عادت لمترلها تاركة روحها لديه.. عادت مزهوة بعرش أسسه لها ..

استلقت على سريرها داخل ظلمة غرفتها تفكّر به.. كيف عرف الجمهور بها وأبرز محاسن فنّها؟.. كيف احتفى بفنانة في باديء حياتها ولم يتكبّر عليها.. بشاشته ودفئه.. وإذا بصوت قاسٍ أجش ينتهك خصوصيتها "أنت جيتي يا ست المشهورة ".. تستيقظ من حلمها العاشق على واقعها المؤلم.. جسد يرتمي جانبها فينفض سريرها.. يَنذعرْ قلبها وينتفض.. أصابع باردة الأطراف تمتدُّ إلى جسدها.. تحاول أن تتعذر بالتعب.. تعتذر ولو لليلة واحدة عن تلبية رغباته.. ينهرها آمرًا

-هو أنتي أول ما هتتشهري مش هتسمعي الكلام ولا ايه.. تجي أقولك اقعدي في البيت ومفيش شغل ولا تسمعي الكلام وتطاوعيني.. ياللا يا فنانة تعالي برضاكي أحسن..

خمسة أعوام من الذل والقهر تستيقظ داخلها.. استجداء للحب من قلب فارغ لا يعرف الرحمة، زواج تقليدي سريع بمواصفات سليمة ولكن كانت نتيجته صادمة.. زوج لا يعرف للعاطفة طريقا ولا يهمه سوى صب حماه بها.. أخذ ما يأخذه كل ليلة واستدار تاركًا إياها مدمرة منهكة..

على أطراف أصابعها خرجت من الغرفة لتغتسل مما لحق بها من تنكيل لأنوثتها زلزل كيانها.. وقفت تحت المياه تبكي ألمًا كيف انتهى بها الأمر مع هذا الوحش النهم؟!.. أخذت تتذكر كلام أبيها عن مدى ملائمة مواصفات العريس لوضعهم وكيف أقنعها الناس بأنه لا حياة للمرأة سوى بيتها وأن فنها ما هو إلا موهبة يمكن التنازل عنها في سبيل أن تتزوج ويكون لها حياتها.. كيف كان فنُّها مدخلًا لها لكل من ذوي الأطماع والنفوس المريضة.. يأسها من أن تجد حبيبها المنتظر.. نصائحٌ انهالت على مسامعها

-اللي بتدوّري عليه مش هتلاقيه.. مفيش رجل تفصيل.. أنتي بتتبطري هو حد لاقي جواز.. اتجوزي علشان تجيبيلك عيل تربيه وتفرحي بيه..

ترطم رأسها بالحائط باكيةً نادمة.. تستند برأسها إلى الحائط.. تمتزج قطرات المياه الساخنة ببكائها.. ينخرس صراخها..

تظلّ هكذا لبعض الوقت.. تغلق المياه تلفّ جسدها بمنشفتها.. تتسمّر أمام المرآة حاسمة أمرها "فات الأوان".. في استسلام تام ترتدي ملابسها وتخرج..

تحضِّرُ لنفسها كوبًا من النسكافيه وتجلس على الأريكة تلتقط أنفاسها.. تعلم أنه لن يصحو مرة أخرى كعادته.. تخرج أسطوانة

مسجلة لقصائد درويش بصوته.. تستمع إلى قصيدته "أجمل حبّ".. أخذت أبيات "درويش" تغزو مسامعها وتتردد داخلها ..

كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة

وجدنا غريبين يومًا

و كانت سماء الربيع تؤلّف نجمًا.. ونجما

وكنت أؤلف لعينيك فقرة حب

لعينيك.. غنيتها!

أتعلم عيناك أنّي انتظرت طويلًا

"أتعلم عيناك أني انتظرت طويلًا".. تكالبت عليها جراحها، ودمعت عيناها؛ فحضر بكامل بهائه يكفكف دمعها.. جلست بين يديه.. أسندت رأسها على ركبته.. جرت على وجنتيها دموع انتظار ووحدة لطالما أرَّقا ليلها.. نظرت إليه نظرة المعاتب الملتاع شوقًا.. بثته وجعها صمتًا.. رأته ينظر إليها نظرة المعتذر العالم بوجعها.. مدَّ كفه يلامس وجهها.. تمسَّحت بكفه كقطة.. نظرا لبعضهما مطولًا تحدثا وجدًا: "أتعلم عيناك أني انتظرت طويلًا.. " يرد عليها متممًا قصيدهما.. يا أجمل حب :

صديقان نحن، فسيري بقربي كفًّا بكف

معًا نصنع الخبز والأغنيات

لماذا نسائل هذا الطريق.. لأيٍّ مصير

يسير بنا؟

ومن أين نلملم أقدامنا؟

فحسبي وحسبك أنا نسير

معا، للأبد

كلاهما ينطق معًا "للأبد..".. تتحسس شفتيه بأناملها حينما ينطق بها.. فتغفو على كفها بكفه، يسيران نحو أبد جميل.. أبد مستحيل.. ويصدح صوت "درويش" حرًا مجلجلًا ، مخلّفًا صداه خاتمًا

أتعلم عيناك أني انتظرت طويلًا

كما انتظر الصيف طائر

ونمت.. كنوم المهاجر

فعين تنام لتصحو عين.. طويلًا

وتبكي على أختها،

حبيبان نحن، إلى أن ينام القمر

ونعلم أن العناق، وأن القبل

طعام ليالي الغزل

وأن الصباح ينادي خطاي لكي تستمرّ

على الدرب يومًا جديدًا !

ذاكرة جرح

كلهن نمن على سريره وتوسدن أضلعه.. كلهن تركن الوهن بجثته.. تركن شيئًا من رائحتهن يعبث بتاريخه.. كلهن أخذن جزءًا منه وهنَّ راحلات.. تركن أطيافهن تحاصره..

لم يتبق له سوى ما فاض عن حاجاتهن.. منديل انطبعت عليه شفاه إحداهن أو لوّثه كحل أخرى.. رقصات وضحكات.. همسات ولمسات.. دهر من ندم وذاكرة جرح..

متوالية من الخذلان وسكرات تفريه.. كلّت روحه.. انتفت.. فنت في عدم من الآلام.. في عمق ظلمته، ذوات تدحض ذوات.. لم يعد من مجال للاستحداث.. للحياة.. حيث هو لا مجال للرحمة.. أو لعلّها منتهى الرحمة من منطلق القتل الرحيم.. جثة باردة .. قلب بلا روح تَرَكْنَه.. لا يصلح بعدهن لأخرى.. تلاشى الكون أمامه إلا من طموح يحييه ويحرقه..

فورة.. ثورة من الإبداع والحضور.. بات غنيًا عن التعريف، ولكن لابد له من حسناء تقدمه.. بِتْنَ فقط لكمال زينته.. مؤمن هو أنه لا وجود للمرأة الفاضلة..

بمجرد أن تلفظ الحسناء اسمه يندلع الحضور تصفيقًا وتهليلًا.. يخرج للملأ.. ما أن تقع أعين الحضور عليه حتى تلزمهم هيبته بهدوء وصبر جميل..

للألم مسحة تسلب لُبّ الحضور!

يبتسم وينحني انحناءة تحية صغيرة.. يمسك بريشته وكأنها عصًا سحرية.. يبدأ سيمفونيته.. ينفصل عن الكون.. يصبح كونًا بحد ذاته فرغ من الكل حتى امتلأ به.. ملحمة فنية تولد فيهدر الحضور مذهولًا؛ فيمحوها في أقل من دقيقة.. ومضات كاميرات تصوّره.. تلتقط تعابير وجهه.. سطوعه رغم الظلمة داخله.. كم ملحمة ولدت تلك الليلة لا يتذكر.. أكبر الملاحم تلك التي تتجلّى في صوره وهو يبني ويمحو صروحًا شيدها بيده..

الملحمة لا تكمن في لوحاته، إنما في كينونته..

***

سامر.. اسمه كما هو.. ليلي عاشق للسهر مولع بالسمر.. تغلّفه بشرة سمراء تبرز وسامته.. أربعيني من أسرة متوسطة، بحياته عدة نقاط للتحول.. داخل عينيه اللوزيتين المتسعتين ترى عهره وبراءته.. معتزّ هو بتواضع نشأته.. متباه بما أصبحت عليه مكانته.. دائم الحديث عن كيف بات يشتري الماركات بعد أن كانت رخيصة بالية حلّته.. طَمُوحٌ حدّ الحياة.. عَمَلِيٌّ حدّ الموت.. نَاريُّ الموهبة..

كيف يجمع بين النور في يده والحلكة بداخله؟!.. دهر من الألم.. من الاهتراء.. موتٌ فَبَعْث.. احترق بالنار وبُعِثَ منها ليرقص على هشيمه.. أخذ من خواصها وتغذى عليها..

باتت نفسه أولًا وأخيرًا وما سواها لمتعته.. لا يثق بأحدٍ ولا يقرِّبُ أحدًا.. لا استثناءات في قانون كيفه.. فقط تحكمه المصلحة..

تأرجحت أيامه بين العمل والمتعة، لكلٍ وقته وحاجته.. في الصباح الباكر اجتماعات وطوال نهاره عمل ومقابلات، أما ليله فدومًا صاخب الملذات سرمدي الشهوات.. لم يتبق له من علاقته بخالقه سوى صلاة الجمعة؛ فمهما حدث لا ينقطع عنها.. لا يدنّس بصخبه يومها وليلتها.. خيط رفيع بربه يربطه.. يخشى أن ينقطع!

محبوب هو رغم علته!.. رجل لا يشبه من يُطْلَقُ عليهم بني جنسه في شيء إلا في شغفه بمتعته!

***

في عتمة الليل، على فراش الخريف، نامت متدثرة بأنوثتها في أحضان الحلم.. ما بين الثورة والعقل.. في مكر النشوى وبهاء الطهر قضت ليلتها.. في صباح ماطر، ما بين شوق عاصف وشتاء قارص.. استيقظت تموء من غفوتها، في دلال القطط ورقة الزهور أنزلت على الأرض قدميها..

تمادت في ثوبها الزهري.. وكحواء في صورها الأولى تحت قطرات المطر خلعت عنها وحدها تغتسل من عذاباتها.. تتوضأ لصلاتها.. تلتحف بطهرها.. تتجمل.. تتعطر لتلاقي مبدع خلقها تنهي صلاتها.. تسلِّم يمينا ويسارا.. ببسمة رضا تشع طلتها..

تنهض، وإذا بأمها خلفها.. كعادتها تصحو باكرًا لتطمئن عليها.. تقبِّل يدي أمها في حنو وتحتضنها.. تشم رائحتها.. تحاول أن تختزلها داخل صدرها قدر استطاعتها.. تتبسم:

- صباح الفل يا ست الكل.. تصدّقي يا أمي بتوحشيني شوية النوم بتوع بالليل دول.. كفاية على بابا بقا وتيجي تنامي معايا خلاص بعد كده..

تصمتا مصدومتين بما قالت؛ هي ما زالت تحيا وكأن أباها ما زال على قيد الحياة، مازال عقلها يرفض الاعتراف بموته.. تغرورق أعينهما بالدموع.. تضع رأسها على صدر أمها..

في حنو بالغ تضمّها الأم بكلتا يديها..

- ربنا يرحمه يا حبيبتي ويخليكي ليا.. ربنا يفرحني بيكي بقا.. مش عايزة أموت وأسيبك لوحدك..

تغرورق عيناها بدمعة تواريها.. ترفع رأسها مداعبة

- يا ماما افتكري لنا حاجة حلوة.. جواز مين بس ما قولنا يا ست الكل الرجالة راحوا في 73 والباقي حصلوهم في 25 ..

تنتصب كنخلة فارعة مصوِّبة إصبعها لأعلى

– وبالتالي ومن موقعي هذا أحب أقولك المثل الشهير: "قعدة الخزانة ولا جوازة الندامة".. مش عارفة ليه دائما تنسيه.. هو أنا كل شوية يا بطتي لازم أفكرك بيه..

تضحكان ملء قلبيهما.. تداعب الأم خصلات شعر صغيرتها المنسدلة على جبينها

– والله أنتي مجرمة.. ربنا يحفظك ويرزقك بالخير يا بنتي..

تقبّل يدي أمها وتمضي بخطوات واثقة تجاه عزلتها.. تعد قهوتها الصباحية.. أخذت تفكر في كلمات أمها، وذاك الواقع الذي عليها أن تلاقيه خلال سويعات قليلة.. ذاك الوطن الفاقد لحريته في طموح قيد الاعتقال.. أخذت تفكّر في شعب عومل ويعامل كالفاقد لأهليته..كارهة هي للقيود.. ظل يطرق رأسها سؤال واحد: هل تسافر وتترك كل هذا الذل والهوان خلفها؟! أم تمكث وتنتظر؟!.. وما نفع الانتظار ما دام الشعب لا يثور وإن ثار دومًا منقوصة ثورته!!.. حتى فارسها المنتظر لا منطقية في انتظارها له.. أتنتظر عصفورًا ولد في الأسر أن يغدو جارحًا.. مُهْتَمَّةٌ هي بالوطن فحريتها حريته..

يغزوها الصمت للحيظات.. تعبر صورة والدها أمامها.. حتى وإن استطاعت السفر فهي لن تفعل، ما يربطها بالوطن يتلخص بأمها أكثر

من أي شيء؛ فهي تشعر بأنها مسئولة منها الآن.. منذ تعدت الثامنة والعشرين من عمرها وشعور غريب بالأمومة تجاه والديها أخذ يتعاظم داخلها.. كلاهما أفنى عمره عليها وعلى إخوتها فكيف لها الآن أن تتخلى عنها في سن احتياجها وبعد فراق رفيق عمرها.. تتبسم داعية الله أن يحفظها ويبارك في عمرها فهي من دون أمها ورقة في مهب وحدتها..

تتلفت باحثة عن الريموت.. آه ها أنت كيفما تركتك البارحة، توجهه نحو جهاز الستيريو.. تضغط زر التشغيل، وها هو يأتيها صوت "جوليا بطرس" يشدو برائعتها "يومًا ما":

على رغم الجو المشحون.. تبعًا للظرف المرهون..

مطرح ما عيونك بتكون بحلم شوفك يومًا ما

بكره بيخلص هالكابوس وبدل الشمس بتضوي شموس..

على أرض الوطن المحروس راح نتلاقى يومًا ما

على هدير الشوق.. على أنغام الأمل تتراقص أبخرة قهوتها.. تتبسم لفحوى الكلمات.. و كأنها رسالة لشحذ عزيمتها.. تكتب تغريدتها الصباحية:

#لايغير_الله_مابقوم_حتى_يغيروا_ما_بأنفسهم _صباحكم_ثورة_على_الجهل_صباحكم_ثورة_أخلاق_صباحكم_حرية_من_غير_عنصرية

تنهض لتزيح أستار الربيع عن شرفتها.. في حرارة الصيف تطل بغوايتها، تلهب الكون عشقا.. تحييه ألما..

شروق هي.. وكما اسمها إشراقتها..

***

آه.. إنه يوم الخميس المفضل لديها.. تنهي عملها مسرعة إلى النادي لتقابل رفيقاها.. تتنوع خلفياهن الثقافية وشخصياهن. لكل حكايتها وكفاحها الخاص. هي تعشق جلستهن على اختلافهن عنها.. تستشعر أنها معهن في سينما عرض خاص طوال اليوم.. أحاديثهن، مشاغباهن، حتى خلافاهن وأزواجهن والصراخ بوجه أطفالهن.. كلها أحداث تشعرها بالحياة.. تلهمها.. كم تعشق يومياهن الساخرة..

جلسن جميعًا وأخذن يثرثرن عن الرجال، وأخذت كل منهن تحكي نوادرها وزوجها.. حكايات تحوي من الطرافة والمكر كما تحوي من الألم والقهر.. هذه يسيء زوجها معاملتها، وهذه منحها الله زوجًا عطوفًا تتجبر عليه، وتلك تزوج عليها زوجها وأسكن كلتيهما معًا، وكيف تحول الصراع على السطوة إلى صداقة تجمع كلتيهما بل

وتكاتفتا ضده في حال تجبر على إحداهما ومنهن من تتظاهر بالسعادة، ومنهن من تداري على شمعتها فتدَّعي القهر.. وهذه تتعذب بحب ذاك وتلك أذاقتها والدته الويلات.. صخب يلفها وهي تجلس تارة مبتسمة وتارة متألمة وأحيانًا ضاحكة صاخبة تواكب معهن الحياة..

يأتي النادل ليأخذ طلباتهن.. تطلب كل منهن ما تريد، وحينما يأتي دورها تطلب قهوة "مانو" وزجاجة مياه صغيرة.. تضحك صديقاتها ويسألنها: ما هي تلك القهوة "المانو"؟.. تشرح لهن أنه لفظ ردده عليها النادل حينما كانت تطلب قهوتها ما بين المضبوط والزيادة ومن يومها يرافقها وقهوتها..

كان يجلس على مقربة منها وحيدًا إلا من سكتش رسم وقلم فحم وإلهامه الخاص.. جذب صوتها ولفظها مسامعه.. لم يسمع امرأة من قبل تقول هذا اللفظ.. هو لفظ دارج في بيئة لا تمت لهذه الأنثى بصلة..

أخذ يتتبع جلستها، نظراتها.. كيف تضحك صاخبة، وكيف حينما تتطرق إحداهن لأمر يخصها وزوجها تحمر وجنتاها ويكسو الخجل وجهها؟..

جاءتها القهوة وزجاجة الماء الصغيرة.. فتحت الزجاجة ووضعت قليلا من الماء بغطائها، وأخذت تقطّر الماء بالقهوة..

تبسم لتميز مزاجها.. للحقيقة أعجبه طابعها وجذبته كينونتها.. شعر بأن لديها ما يستحق دون سواه أن يقطفه..

هبّت للرحيل.. كاد أن يهبَّ في إثرها لولا أن سمعها تؤكد على موعدها الخميس القادم معهن كما اعتدن بنفس المكان؛ فركن واستكان.. إذًا هو موعدها معه هو الآخر..

***

كلما تتبعها كلما انتابه شعور غريب ومفاجيء بالاشمئزاز من عاهراته الماجنات.. تدريجيًا بدأ ينسحب من ظلمته منشغلًا بها.. راقبها عن كثب.. أعد جيدًا للقائها. بدأت تطفو على سطح لوحاته، منذ زمن لم تلهمه امرأة على شاكلتها..

إنه الخميس المنتظر.. أشرقت كعادتها وقد تهيأ لها.. ببنطال جينز كحلي داكن (بلو بلاك) وقميص لبني، وحذاء جملي اللون يرافقه حزام يطوق خصره الرياضي الممشوق بنفس لون الحذاء..

جلس ينتظرها.. تأخرت قليلًا تلك المرة ثم فجأة تجلَّت في قمة روعتها.. كانت في هذا اليوم أشهى وأروع.. فستان أبيض وسترة قصيرة تصل لخصرها وردية اللون (بوليرو) وحجاب أبيض تزينه بتلات وردية وحذاء وشنطة بلون الفستان.. حقًا أشرقت على قلبه هذا اليوم.. عرضًا أضاءت نفسه..

جلس يسمعهن يطرين عليها.. شعر بحركة غريبة تحدث بينهن، هن في انتظار شخص ما.. جلس يترقب ما ينتظرن..

شاب غريب يقترب منهن، وسيم متعجرف، لا يليق بها.. هكذا شعر به.. إذًا هن ينتظرن زوجًا محتملًا.. جلسا يتحدثان.. تركتهما الرفيقات وجلسن بعيدًا يراقبن ويتغامزن ويتلامزن عليهما..

وجلس هو يراقب تقلبات وجهها متى تبتسم.. متى تتجهم، وفجأة أَفَلَتْ شمسها وتلبدت سماؤها وانتفضت واقفة.. رمت الشاب بسهم حارق من عينها وتركته وذهبت لصديقاتها.. استأذنت منهن للرحيل في هدوء دون تقديم أي مبررات.. حاولن حملها على الحديث.. صدتهن بكلمات مقتضبة.. حملت حقيبة يدها ورحلت..

تبعها بشكل لا إرادي محاولًا مواكبة خطواتها المسرعة.. حاذاها دون أن يحادثها.. انتبهت له بعد هنيهة.. توقفت تنظر إليه بعين مستعرة متساءلة.. تبسَّم بملائكية رحيمة.. لم تكن في مزاج يسمح لها بمجاراة ابتسامه.. همت مستكملة طريقها وإذا به يهم تابعًا لها.. توقفت ناظرة إليه مرة أخرى، وإذا بابتسامته ترغمها تلك المرة على الابتسام.. تتبسم بصعوبة مندهشة من تتبعه لها وكلاهما لا يعرف الآخر.. ما إن تبسمت حتى نطق:

– أيوه كده .. أنت متخلقتيش إلا علشان تضحكي

تملكتها الدهشة والذهول من فعله وكلماته؛ فأطلت من عينيها نظرة مستنكرة.. أيقن التساؤلات بنظراتها فبادرها:

– أيوه احنا منعرفش بعض أو أنت متعرفنيش بس أنا عارفك نقدر نقول نص كويس.. متستغربيش وتبصيلي كده.. كمان ياريت تقفلي بوقك علشان الناس حولينا بتبصلنا عيب كده ..

لم تتمالك نفسها وانفجرت ضحكًا، وضحك هو على ضحكها، فأمسى قلبه مطمئنًا لوصلها:

– ممكن تسمحيلي أعزمك على فنجان قهوة.. أكيد مش هيحصلك أكتر من اللي حصلك النهارده.. أوعدك..

تتردد قليلًا.. ينظر لها بطفولة راجية.. توافق على تناول القهوة معه.. تمشيا قليلًا حتى وصلا لمنفذ بيع المشروبات الساخنة..

– واحد قهوة مانو وواحد سادة لو سمحت..

تنظر له مندهشة؛ كيف عرف قهوتها؟! ينظر لها مداعبًا

– تاني هتفتحي بوقك.. **Control your self** يا هانم

تنظر حولها تجاريه ردًا على دعابته.. تتبسم مرة أخرى متظاهرة بتدارك نفسها.. يمد يده متناولًا القهوة من البائع.. يناولها قهوتها.. يتمشيان قليلًا حتى يصلا لأرض الملاعب.. يجلسها على المقعد الخشبي

القابع بمنتصف الملعب ويجلس جوارها. صمت طويل يلفهما، كانت نظراتها هائمة حد البراح المطلق أمامها..

دومًا رآها قوية ثابتة، ولكنها لم تستطع تلك المرّة أن تتمالك نفسها.. بكت العمر في لحظة.. بكت أباها.. بكت الوجع.. لم يعرف كيف يهدئ من روعها.. باغته بكاؤها، ضعفها الملائكي، لؤلؤتها المستترة داخل محارتها المنغلقة على سرها..

لأول مرة لا يعلم ماذا عليه أن يفعل.. كان مأخوذًا بحزنها كما بها.. تلبَّسها صمت غريب كأن نفسها تركض بمتاهة يصعب الخروج منها.. مدّ كفه ملامسًا كفها.. نظرت إليه نظرة متهاوية، حينها عانقتها عيناه.. انسابت من عينيها دمعة حارقة تحاول جاهدة أن تواريها.. لم تعلم لم بكت؟! أو كيف ومتى نفذ لروحها ؟!.. من أين له هذا الدفء؟!

يشدُّ على يدها.. يبثها بقوته دفئًا يرمم جدران مدينتها.. لم يحدث أن أطاعت شخصًا في الكون سوى أبيها.. هو في حنوه يشبهه، لعل هذا ما جعلها تخبره.. هدأت قليلًا .. تحكي له ما كان من حكايتها..

– جلسنا.. تعارفنا.. تحدث عن نفسه وإنجازاته كثيرًا.. كان واثقًا من قبولي بشكل غريب.. للحق استفزني من النظرة الأولى.. أنهى حديثه وكنت في صمت اتأمل كبره وغطرسته.. كان يحاول أن ينتقص مني، من مكانتي.. حاول أن يشعرني بأنه يتعطَّف علي حينما

يأخذ قرار الاقتران بي.. فلولا أن أخبروه بمدى ملائمتي له وكوني زوجة مستقبلية جيدة لما كان أبدًا تعطف وقبل بامرأة تصغره في السن بسنتين فقط.. كان يمكنه أن يختار من الفتيات ممن حوله من هي أصبى مني.. يالكرمه الباذخ!!.. أتعلم كل هذا لا يهم.. فأنا قادرة تمامًا على تلقين أمثاله درسًا قاسيًا، ولكنّي احترمت صديقتي التي جلبته لي.. سامحها الله على فعلتها، ورغم ذلك أبى أن ينهي جلستنا على خير حيث تمادى "علمت أن والدك متوفّى.. أعتقد أن هذا سيسهّل من الأمر كثيرًا فليس لديك من يراقبنا أو يقيدنا ويجعل تعارفنا عسيرًا".. واقترب بوجهه مني وغمز بعينه "أنا بحب الحرية أوي"، حينها فقط شعرت بها تمطر داخلي صواعق تود لو تحرقه.. نعم كسر ظهري حينما مات والدي ولكني ابنة أبي.. انتفضتُ غاضبة: "من مواصفاتي في شريك حياتي إنه يكون رجل.. عذرًا عرضك مرفوض".. وكما يبدو أنك رأيت فقد اعتذرت لصديقاتي ورحلت..

قالت كلماتها في قوة تلوح من خلفها دمعة فقد. جلس أمامها مصعوقًا من غباء هذا الكائن.. ابتسم متهكمًا:

– والله الحيوانات دي هي اللي مبوظة سمعتنا..

نظر لعينيها نظرة المداعب:

– ماهو محدش يزعل العيون دي إلا لو حيوان..

تتبسم خجلى.. تحمر وجنتاها..

- ممكن تنسي بقا.. و الله حيوان.. عليا النعمة حيوااااان..

في تلك المرة تبتسم ابتسامة تكشف عن غمازاتها.. يشرق وجهها بهجة.. مد يده إليها مصافحًا:

- تسمحي يا هانم نكون أصدقاء؟..

يجذبها جنونه وعفويته، فتهز رأسها في طفولة باسمة معلنة الموافقة..

***

ملأ كل منهما حياة الآخر، إلا أنها لم تكن عالمة به كما كان عالمًا بها.. هي لم ترْ منه سوى ما أراد لها أن تراه.. أخفى عنها ظلمته آملًا ألّا يعود للظلال..

كلٌ منهما وجد ضالته عند الآخر.. هو وجد بها البراءة، شخص يستحق أن يحاول الثقة به، وهي وجدت السكن لنفسها، الدفء..كانا يتشاركان الاهتمامات.. تذوق الفن بكافة أنواعه وبخاصة الرسم.. عشقا منير والبحر.. والقهوة على اختلاف مزاجهما بها.. جمعهما اتفاق غير معلن على ألا يؤثر كل منهما على حياة الآخر العملية.. اتفقا على النجاح جنبًا لجنب، واختصا لنفسيهما يومين فقط من الأسبوع.. الخميس للخروج بعد العمل والجمعة للإفطار باكرًا على شاطئ البحر.. كم أَحَبَّ الإفطار معها في ذاك المطعم المطل على البحر في ستانلي.. بيض مخفوق وخبز محمص وعصير برتقال.. يتحدثان عن كل ما مرا به خلال الأسبوع.. يتداعبان،

يضحكان.. يناوش أنوثتها.. تخجل فتزهو رجولته.. يطلب لها القهوة.. يتناقشان في كل أمر.. دومًا ما اختلفا سياسيًا.. هي ثائرة وهو دومًا حيادي الفكر.. دومًا أثار حفيظتها لكنه رغم ذلك ظل آسرها.. امتزجا سرًا حتى دون علمهما.. دومًا يبدأ الجمعة وينتهي باكرًا فعليها أن تقضي يوم الإجازة مع حبيبتها.. كم عشق ذاك الرابط الذي يجمعها بأمها..!!

***

ليلًا كان عليه أن ينهي بحث سوق خاص بعمله.. كلما حاول التركيز كلما لاحت أمامه.. يحاول دفعها قليلًا بُغية التركيز وإذا بها تتقافز داخل عقله، تطل من خلف الكلمات.. تنبت من البياض، تتلاعب بمخيلته.. يبدو أنه لا مفر من حضورها.. يغلق جهاز الكمبيوتر وينحي الأوراق جانبا، يظلم غرفته جالسًا على مقعده رافعًا قدميه متقاطعتين على المكتب متكئًا برأسه على ظهر المقعد متجهًا بعينيه صوب السقف المرصع بخيالاتها.. يستمع لمقطوعته الموسيقية المفضلة Rain on the pond.. امتزج صوت المطر المصاحب لموسيقاه بتهدج صوتها.. برزت نبرتها الثائرة بطَرَقاته.. كانت ذاكرته تستعر بها، دمعاتها الأبية، بَسَمَاتها، ألوانها وضحكاتها.. تلك الغمَّازات الفاتنة على وجنتيها، وجرأة تلتحف الخجل تطل من طفولة عينيها، حتى ثرثرتها الطفولية عشقها، نظرتها الجمالية للأشياء، قدريتها، ووجهات نظرها المثيرة للجدل، رحمتها.. والأهم صدق

يفيض من سريرها.. بات وجودها يشغل حيِّزًا بحياته، يفكر بها.. يخاف عليها.. يهوى اللحظات التي تجمعهما.. كلما التقيا تقاربا.. ملأ كل منهما فراغ الآخر.. أشرقت على سقيعه وتدثرت بدفئه.. ولكن كلما تعمق بها كلما طفا على السطح شعور آخر يحاول الوقوف بينهما، الخوف، خوف من الضعف، خوف من ترك الوحدة من منطلق الوفاء لها كونها الأكثر وفاءً بين بنات حواء له!

"هل يحبُّها؟!" ينتفض للسؤال.. ينهض.. يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا.. هو لا يعلم ماهيَة شعوره تجاهها أو لا يود أن يعترف.. فقط كل ما يعلمه أن الحبَّ لمثله مستحيل.. انقسم على ذاته.. أخذت ذواته تحدثه:

"لا وجود للملائكة على الأرض.. لا تثق.. لا تحب.. وحتى إن اجتمعتما على الحبّ عاجلًا أم آجلًا لابد وأن ينتهي الأمر.. يبدو أنك لم تتعلم مما مضى"..

حاول أن يتجاهل الصوت داخله، ولكن أبت الحلكة إلا أن تجذبه لعمقه مرة أخرى.. كلما تقابلا يشع داخل عتمته نورها.. تنقشع ظلمات نفسه، ولكنها تعود أحلك كلما غادرته.. باتت ذواته ترهقه.. تخور قواه.. تعم الظلمة.. تصحو رغباته من سباتها..

- لم يجمعك بامرأة سوى المتعة.. ثلاثة أشهر الآن ولم يحدث بينكما شيء بعد.. هل فقدت قواك أيها اللعوب الوغد؟! ..

- دعني وحدي.. هي ليست مثلهن.. هي لا تشبههن في شيء..

- أو... لعلها مثلهن تمامًا ولكنك لم تجرِّب معها شيئًا بعد.. لعلك أنت من تخاذلت في قطف ثمارها..

- اصمت.. أغرب عن وجهي.. هي ليست مثلهن.. ليست مثلهن..

يجلس آخره أمامه واضعًا ساقًا على الأخرى، مبتسمًا ابتسامة ماكرة متهكمة..

- هل خيَّبت إحداهن نظرتي بها أبدًا.. كل النساء على نفس الشاكلة.. وإن لم تصدقني جرِّب.. يا صديقي التجربة خير برهان..

يضرب بقبضته على سطح المكتب.. صدى ضحكات آخَره تتعالى داخله.. يمسك بمطفأة سجائره القابعة أمامه ويلتف قاذفًا بها المرآة خلفه.. ينظر لنفسه من خلال انكسارات مرآته.. يوقن أن الوحش داخله يكاد يتحرر.. لم يستطع النوم تلك الليلة، وقبيل الفجر بساعتين شعر باختناق شديد فخرج من بيته هائمًا على وجهه يجوب الشوارع المظلمة.. تعاظمت عليه ظلمته كاد الوحش يلتهمه لولا أن قاطعهما أذان الفجر..

قادته قدماه إلى المسجد.. خلع نعليه وتوضأ.. أطفأ الوضوء ناره.. استقام للصلاة.. بين يدي ربه تضرع وبكى كطفل صغير.. أنهى صلاته، ولكنَّه عاد للسجود مشتاقًا ليدي ربه مثقلًا بالجروح ظلَّ ساجدًا..

كان الشيخ يتابع سجوده.. تركه لبرهة ثم ذهب إليه مربتًا على ظهره.. استقام من سجوده وجلس بين يدي الشيخ.. جلس صامتًا دامعًا..

شعر الشيخ بألمه.. شعر بتهاوي قدرته على الكلام؛ فتبسَّم في حنو ورحمة:

- ارمي حمولك على الله يا ابني.. ضاقت ولما استحكمت حلقاها فرجت.. مفيش أكرم من جابر الخواطر.. قول يارب

"يارب.. يارب" قالها وبكى.. أمسك بيد الشيخ ووضعها على قلبه:

- قلبي وجعني يا مولانا.. وجعني أوي.. خلي وجع قلبي يقف.. ريحني.. ادعيلي ربنا يرحمني.. يمكن أنا معملتش حاجات كويسة في حياتي علشان ربنا يرحمني.. بيعاقبني فيها.. ادعيلي انت يا مولانا.. ادعيلي ربنا يرحمني.. ادعيلي الوجع يقف.. أنا خايف عليها مني أوي.. ادعيلي

ينفجر باكيًا وهو يربط بيد الشيخ على قلبه بقوة.. يرأف الشيخ بحاله فيتلو عليه آية من سورة الحديد:

بسم الله الرحمن الرحيم.. هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (9).. صدق الله العظيم

تتنزّل الآية على قلبه بالسكينة.. تهدأ عبراته.. يبادره الشيخ:

- تصدَّق يا ابني.. الصدقة تُطفيء غضب الرحمن.. تصدَّق، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.. لا تيأس من رحمة الله إن رحمته وسعت كل شيء

يودِّع الشيخ ويمضي في طريقه.. يعقد العزم أن يصلح نفسه أولًا كي ينال الغفران ومن ثم يستحقها..

لثلاثة أيام متواصلة تتصل به دون جدوى.. في اليوم الرابع قررت أن تذهب له مقر عمله لتطمئن عليه.. على الرصيف المقابل لشركته رأته يقف مع مجموعة من زملائه ضاحكًا مداعبًا..

"إذًا هو بخير، ولكن لماذا لا يرد على مهاتفاتي؟!.."

توارت عن الأنظار.. أخرجت محمولها واتصلت به.. رأته يخرج هاتفه من جيبه.. ينظر لاسمها.. يتبسم بشيء من السخرية ولا يرد.. يستأنف حديثه مع زملائه.. تغادر بشيء من الألم وغصة بالحلق..

توقفت عن مهاتفته.. أسبوع كامل مرَّ دون أن يتحادثا.. أسبوع جذب الآخر.. انكسر شيء داخلها.. مرة أخرى عادت لوحدتها.. اتشحت أيامها باللامبالاة.. عدم الاكتراث تجاه كل شيء.. خذلان آخر ينضم لقائمتها.. لا وجود للحب كان هذا مفاد تجربتها.. لن يعود شيء مثلما كان..

كان يعلم أنها تشاهده.. في طريقه للعمل رآها تتهادى كسوسنة حزينة إليه.. كان يعلم أنها ستحاول الاطمئنان عليه.. راهن على كبريائها وترك مصيريهما للقدر..

وقف يحادث زملاءه.. يختلق المواقف.. يصطنع الضحك.. كان يذبح نفسه حتى لا يظلمها في خضمّ صراعه.. كان كل ما يشغله في تلك المرحلة هو إصلاح نفسه، وحتى يحين الوقت كان عليه أن يتركها تمضي خوفًا عليها ورأفةً بها.. هي أقوى من أن تنكسر لفراقه، وهو أضعف من أن يغامر بكسرها..

عاد لحربه الضروس.. تَعَمَّقَ خواؤه وتَرَسَّخَت وحدته.. بات أعنف.. بات أحلك.. اشتدت محنته حتى انقشع الظلام، بنور الله.. استعاد نفسه..

حسم أمره، ويوم الخميس كعهده بها توجَّه إلى النادي عازمًا على استعادتها..

ثلاثية البحر



مد

كطفلة حائرة ظلت تبحث عنه.. ضلّت لو أنه لم يدركها.. ما أن نادى اسمها انتبهت عيناها وركض قلبها صوبه بطفولة عمر ضائع ولهفة شوق أضناه البعد..

"وحشتيني".. بوقار باذخ وبراءة شوق جارف يخطفها..

ما بين عناق الأكفِّ وصمت صاخب ضمها برحابة عينيه.. دعاها دون خطاب.. دومًا تحدثا بلغة غير أبجدية المفردات..

تسمعه.. تلبي.. يجلسها جانبه.. يحتويها بحضوره الدافيء.. ودَّت لو التصقت به؛ لأول مرة يجلسان بذاك القرب ورغم قربهما جلسا على مسافة حرمان..

جلسا على مسافة سؤال وإجابة.. في صمت.. في وجد..

ظلَّ يشاهدها وتشاهده دون النظر لبعضهما البعض.. تآلفا.. امتزجا.. وجدت موطنها داخله..

جذر

جلس جانبها.. لا يفصل بينهما سوى وقاره وبراءتها.. تتطلع إليه بعينيها دون أن يلاحظ.. تحاول قدر الإمكان أن تتشبع بحضوره.. على سفر هو.. لم يخلق ليطأ الأرض.. تتلألأ بعينيه.. تتوهج على استحياء.. ينظر لعينيها يخترق روحها وكأنهما خلقا من ذات الوجد..

يرى بائع الفريسكا مارًا أمامهما.. يشير إليه بكفه إشارة رصينة.. يقفز قلبها فرحًا كطفلة صغيرة.. عاشقة هي للفريسكا.. مأخوذة بلفتاته البسيطة.. يهديها قطعة مدورة من البسكوت الرقيق المغطى بطبقة من العسل، ويختار لنفسه قطعتين صغيرتين بالبندق.. يأكل واحدة ويهديها الأخرى.. تهديه نصف ما تملك من هديته.. ودت لو أطعمته بيدها.. كيف يمكن ليدها أن تلمس شفاه..

يشيح بنظره صوب البحر.. يقفز قلبها محتجًا: "ألا يكفي أننا على فراق؟".. ينظر إليها وكأنه سمعها متبسمًا بثغره المنمق الدقيق.. تتبسم هي الأخرى خجلى.. ينظر كلاهما صوب الغروب.. غربت شمس اليوم كما شمسهما..

غرق

أخذت بكتابها، موسيقاها.. وقلم يلازمها، واتجهت صوبه..

ما أن وقعت عيناها عليه ولامست قدماها رماله حتى شعرت بروحها تتحرر.. ودَّت أن ترتمي بأحضانه.. جلست أمامه تتفكر بتعلقها به.. تحاول أن تمتلئ بصفائه ولو قليلًا.. على صوت نجاة تشدو برائعتها ونزار "متى ستعرف".. ظمأ غريب إليه ناداها.. قاومت.. أمسكت بالقلم وقلَّبت في كتابها حتى أتت ببياض آخر ورقة به، وبدأت تسطر حكايتها معه.. وقبل أن تخط النهاية شعرت به بقوة يجتذبها إليه.. هب نسيمه على قلبها كنفحة من طيب الجنة.. خلعت ما عليها وارتمت بين ذراعيه.. ظل ظمؤه يستعر داخلها.. أخذت تتعمّق داخله أكثر فأكثر وكلما زاد العمق حدّثته عن تلاشي قدرتها على الصمود.. عالم هو أنها جاهلة بفن العوم ..

أخذ يطمئنها.. يمنِّيها ويجذبها.. برحابته وعمقه يغريها

"يا صغيرتي بين ذراعي موطن روحك فعني لا تبعديها .."

تلاشى الظمأ حين حلت أميرة على عرشه بالأعماق.. على الشاطيء أخذت رياحه تقلّب صفحات كتابها بقوة.. تطوي قصة ودّت لو ترويها..

الهاوية

إعلان تطبيق جديد وزر تحميل.. تضغط الزر: عشرة، عشرون، أربعون، ثمانون، مائة بالمائة.. تم التحميل..

زر آخر للولوج إليه.. جاري تحديد المكان.. جاري الفتح..

أربعة قوائم للاختيار.. اثنان منهم واقعيان على الفضاء الشبكي، والآخران افتراضيان ما بين أوهام وخيالات.. احتمالات ترتكز على فراغ..

أصدقاء محتملون أو قتلة متمرسون، وعابرو سبيل، وأحيانًا شحاذون..

الآن بات على كل منهما أن يتخذ القرار.. أي القوائم يريد وأي الأدوار يختار..

من بين العشرات وكسواها من الفتيات اختارها.. فقط لفت نظره إليها ملاحة وجهها وإباء اختلط بجرأة لمعة بعينيها، ورغم ذلك تبقى حقيقة أنه اختارها كما سواها اختار..

هي أجابته كما أجابت العشرات قبله.. ردت سلامه.. تبادلا حديثا قصيرا، ثم كغيره تركته فجأة دون استئذان أو أدنى تقدير..

مرت الأيام.. في كل يوم كان هناك علامة وتنبيه.. رسالة تنتظرها منه، بضع كلمات.. ونهايات أحاديث سريعة كسابقتها.. إصرار منه واهتمام.. ينجح أخيرًا في لفت انتباهها.. يلاقي عندها استحسانا.. وأخيرا تقرر أن تبعث برقم هاتفها إليه كنوع من التقدير لإصراره.. أو لعله درب من الجنون وافق احتياجًا قادها إليه..

بعثت الرقم.. استقبله باندهاش.. لم يطلبه ولكنها أرسلته.. بغريزة صياد يتركها دون اتصال أو رد ليومين كاملين.. وعلى الجانب الآخر لم تلق لردة فعله بالًا فهي لم ترسل له الرقم إلا من قبيل رد الاهتمام.. رسالة تنبيه أخرى.. تفتح لتجدها واردة منه

"عذرًا لم أتصل بك خلال اليومين السابقين لشدة الانشغال"..

تستقبل رسالته مبتسمة، وكأنها تعلم ما يود أن يلفت انتباهها إليه.. تغلق الرسالة دون الرد عليها، لم تنتظر هاتفه تلك المرة.. من قبيل احتراف الانتظار!

يتصل في اليوم التالي.. ترد.. يتبادلان حديثا قصيرا يحاول فيه لفت نظرها لعدم اتصاله خلال اليومين الماضيين، وللمرة الثانية تتجاهل مبرراته وتخبره أنه لا بأس فهي تقدر انشغاله بأي كان ما شغله عن الاتصال.. تستأذنه لتنهي المكالمة بحجّة الانشغال – ردًّا منها

على تحذلقه عليها – يعلم هو الآخر ماهية ردة فعلها، فيبتسم من باديات ذكائها.. أخيرًا وجد فريسة ترتقي لذكاء صيادها..

رويدًا رويدًا أخذت رسائله في الانسحاب معلنة عن حضور صوته الطاغي.. صوت أجش وآخر في نعومة الحرير.. ولما كانت الأذن تعشق أولًا كان لهذا المزيج الخطر عمله.. كان الصوت كافيًا ليسحر كليهما..

ما بين التعارف وخفة الظل تأرجحت أحاديثهما، بالطبع لم تخل خفة ظله من جمل لعوب.. تارة تداعب الحس وتارة تدق على رغبات كليهما.. كانت تستقبل دعاباته بشيء من البراءة خالطها تجاهل متعمد، فلدعاباته ردود قاتمة إن هي استقبلتها في جد. كلاهما احترق شوقًا للّقاء..

استبدت به شهواته.. بدأ يملّ لعبة المهاتفة.. باتت رغبة كل منهما في لقاء الآخر ملحة.. قرر أن يطلب لقاءها فهو عالم بأنها وإن ماتت شوقًا لم تقدم على خطوة مماثلة أو لعلّها رغباته ما عادت تخوّل له انتظار إقدامها..

ككل ليلة تحادثا فباح برغبته في لقائها.. ترددت قليلًا.. كم تود هي الأخرى لقاءه، ولكن ماذا إن رآها أحد بصحبته؟.. كيف تبرر وماذا هي فاعلة؟.. قاطع ترددها وبدا قاطعًا

- اليوم في تمام الخامسة سوف أمر لاصطحابك.. أين تودين منّي انتظارك؟

تصمت في حيرة من أمرها؛ فيقاطعها مكررا سؤاله في إلحاح صارم

- استناكي فين؟

تفيق من ثمالتها على لهجته الآمرة، وكمهرة عصيَّة تثأر لكبريائها:

- مينفعش تقوللي بكره يبقى بكره.. أنا ليا أهل وعندي شغل وكمان في مواعيد لنزولي ورجوعي ولازم استأذن قبل كل شيء..

- شوفي وقتك وظروفك بس عايزك تعرفي إني أحب أشوفك في أي وقت وأي مكان تختاريه ولو عندي شغل الدنيا هسيب الدنيا واجيلك..

تقع كلماته بقلبها.. تهدأ نبرتها ويستكين عنفوانها..

كان لديه الوقت دومًا لرغباته.. في شرعه البراءة ادِّعاء ومصيرها لسواه إن لم يظفر هو بها.. في اليوم التالي اكتفى برسالة على محمولها:

"صباح الخير.. محبتش ازعجك بس مكنش ينفع مصبحش"..

ما أن تقرأ رسالته تشعر بالذنب وتقرر أن تهاتفه.. يرن جرس الهاتف لا يكمل رنته الأولى حتى يأتيها صوته:

- كنت عارف إنك هتتصلي..

تضحك مداعبة:

- لا ده أنت واقع واقع بقا..

يضحك لخفّة ظلّها مداهمًا:

- مش هشوفك بقا..؟..

لم تتردد تلك المرة فقد اتخذت قرارها أن تقابله، ولم لا فهو يبدو مختلفًا عن بني جنسه.. اتفقا أن يلتقيا في سيلنترو الشاطبي الخامسة عصرًا..

تصل قبله.. تجلس في انتظاره في كامل زينتها.. تتساءل كيف يبدو.. هل سيصدمها شكله أم ستحبه.. تتخيل سيناريوهات عدة للمقابلة منها ما يصدمها في شكله فلا تعلم كيف تهرب منه، ومنها الخيالي الحالم الذي تلتقي فيه بفارسها المنتظر.. كانت قلقة مضطربة لا تتمنّى شيئًا سوى أن يكون هو بطل حكايتها... يهاتفها:

- أين أنت؟

- أنا جالسة بالدور العلوي، في الجزء المكشوف، الطاولة المطلّة على البحر

يدق قلبها باضطراب في انتظاره.. يدخل قبله شابّ تلو الآخر في كل مرّة تدعو الله ألا يكون أحدهم.. تتسارع دقّات قلبها، ثم يدخل هو.. يعرفها قبل أن تعرفه.. يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه.. تأسرها ابتسامته..

يسلّم ويجلسا.. يظلُّ ينظر إليها معجبًا، مشتهيًا في حقيقة الأمر دون أن تفهم مغزى نظراته.. يتحدّثان طويلًا.. يخبرها كل شيء عنه وعن أسرته.. يريها صورهم.. يبثّها وجعه على فراق والديه.. يحكي لها عن أخته الوحيدة وكيف هي علاقتهما وقربها إليه.. تفنن في حديثه؛ فتارة مداعبًا وتارة مشاكسًا وتارة عذبًا رقيقًا مغريًا..

باتت كالطفلة بين يديه.. جنّبت عقلها وآثرت الوقوع في شركه.. يحكم قبضته عليها.. دومًا لسيناريو فارس الأحلام سطوته وتأثيره البالغ على العقل..

مرَّ لقاؤهما كالحلم، وعادت لمنزلها على غير حال خروجها.. خرجت أنثى عاقلة.. عادت طفلة مفتونة وأنثى مغامرة..

توالت لقاءاتهما.. هوت داخله.. لقاء تلو الآخر.. أحكم قبضته على قلبها وعقلها.. تجرأ على بثها رغباته.. في البداية قابلتها بالرفض.. ألحّ بدافع الحب.. تهاوى الرفض نزولًا للخجل ومنه للقبول على استحياء فتدرجت في الخطأ.. كما قلبها وعقلها غيّبت عقيدتها..

على الدرجة الأولى استمعت لشهواته..

على الدرجة الثانية أيقظت شهواته رغبتها..

على الثالثة التقيا؛ فلقّن الخطيئة لأنوثتها..

على الرابعة، تركها دون الهاوية.. لم يجهز عليها.. اكتفى فقط بدحض كرامتها..

هو.. كما سوّاها تركها.. سقوطها عمَّق منظوره عن بنات جنسها..

هي.. دفعت ثمن ما تعلّمته براءها.. إن تعلّمت!..

إن لم تتعلّم شاركها في خطاياها القادمة.. هو من أيقظ ظلمتها..

ولد وبنت



في صمت.. في حزن.. بوقار العمر الشاحب، خلعت حذاءها..

خطت في تؤدة، في حكمة بوقار الشعر الأبيض وبراءة عذراء اشتعل بها الشيب..

وقفت تلملم بقاياها.. تستدعي الذكريات.. تلتمس دفء دمعة جفت ما بين أساطير الخيال وأروقة الحياة..

جلست على تلك الرمال مثقلة بحبّ لم تعشه وحياة لم تحياها بوحدة أنهكتها وحكاية ولد وبنت..

على مر السنين كانت تزور البحر لتشاركه حكاياها وأسرارها، ولكن هذه المرّة جلست صامتةً مع صديقها.. جلست تسترجع كل ما فات.. مر شريط عمرها أمام عينيها وتوقّف عنده.. صبي وصبية في عمر الزهور تفتحا معًا.. صداقة وثيقة جمعت بين والديهما رغم اختلاف مستوياتهما الاجتماعية والمادية.. صداقة أخرى تولدت في عمر الصبا.. كبرا معًا.. كل من رآهما معًا اندهش من تشابههما

ظاهرًا وعمقًا.. كانت هي وحيدة أسرتها واعتبرته أمها أخ لها فبات يرافقها في كل مكان..

مجرد أن تذكرته تبسمت.. يكفي أن تفكر به ليعبرها دفئه.. أرخت جسدها على الرمال ناظرة للسماء وارتحلت لحكايتهما..

كانا يتمشيان معًا على الكورنيش كعهدهما منذ الطفولة تمشيا معًا جنبًا لجنب.. لم يعتد قلب كل منهما أن يحمل للآخر سوى الصداقة غير أنه طرأ على قلبها دقة زائدة.. دقة حب لم تلق لها صدى داخل قلبه فآثرت أن تحتفظ بها دون أن تعلمه بمكنون صدرها..

اختلفا في الكثير من الصفات.. كانا كثيري الجدل في كل شيء.. كبرا على اختلافهما في كل شيء إلا العقيدة والأخلاقيات.. هي ترى أن 25 يناير ثورة وهو يراها انتفاضة.. هي ترى مفقوديها شهداء وهو يراهم أمواتا.. فقط اتفقا على حرمة الدم وأنه مات من لا يستحق الموت من أجل من لا يستحق الحياة..

في خضمّ اختلافهما مرَّ بهما سائل.. مدَّت يدها داخل حقيبتها باحثة عن ذاك الكيس الصغير لعملاتها المعدنية.. نجحت في إيجاده بعد أن تخطّياه ببضع خطوات.. أعطته المال متعللة بحرجها أن تعطيه للسائل بنفسها آملة أن يفعل ذلك عنها وكعادته في كل مرة يتأفف من تأخرها

-كل مرة تتأخري .. يا بنتي نفسي مرة تنجزي علشان تديله الفلوس بنفسك..

تبسم في حزن عفيف.. لم يعلم قط أنها كانت تفعلها عن عمد لتوجد طاعة تجمع كليهما.. تتنهد في ابتسام ناظرة إليه وهو عائد إليها يشاكسها بغمزته كعادته.. يضحكان مكملين طريقهما كما بدآه معًا.. يتدافعان ضاحكين.. ينكزها عند خصرها.. يعلم هو أنها تكره تلك الحركة وتستشيط غضبًا عندما يفعلها.. كم يعشق مشاكستها.. ينكزها مرة أخرى فتتخلى عن رصانتها راكضة خلفه.. شبّا معًا ولكنهما لم يتخلّيا عن طفولتهما..

تضحك ملء قلبها على ما كان من طفولتهما.. شابت ومازال هو سر ضحكها.. مازالت تذكر أول مرة تكلما عن الحب.. كانا يجلسان على البحر وكان صوت منير يصدح من أحد الأكشاك القريبة منهم برائعة شادية "يا حبيبي غودلي تاني".. كانا يستذكران حينما جذبت سمعها الكلمات.. شردت عنه لدقيقة أو أقل.. لاحظ شرودها فنكزها مازحًا:

–رحتي فين يا مزّتي..

–قولتلك ميت مرة مبحبش مزّتي، وكمان بَاكْرَه الحركة دي..

يرد عليها ممازحًا:

–جتك نيلة وأنت تطولي يا بايرة.. هو أنت أصلا تعرفي حد غيري..

يضحكان على مشاكساته وردوده الجاهزة الحاضرة دومًا.. ينظر داخل عينيها ويعيد سؤاله مرة أخرى

-لا بجد.. مالك؟ سرحتي في ايه؟!

تتبسم

-مفيش بس منير قال كوبليه حسيت إنه واقعي أوي

ينظر لها مستغربًا:

-أنهو كوبليه؟! يا فيلسوفة

-أيوة فيلسوفة.. عندك مانع؟!.. مش أحسن ما أقضيها تهييس وهزار زيك علطول؟!..

-يا ساتر يا رب مش هخلص من محاضراتك.. انجزي بقا يا دعاء..

-لّما قال "يا حبيبي دق بابي قبل ما يروح شبابي".. حسيت إنها واقعية جدًا.. ليه الناس بتضيع شبابها في بعد وفراق أو حتى صمت؟!.. هنعمل إيه لو الحب جه متأخر؟!.. عندنا إيه نقدمه لبعض لو الحب جه بعد ما فات شبابنا؟!.. فايدة شبابك إيه لو مكنتش تقضيه مع اللي بتحبه ويكون لك طفل منه وتجمعكم ذكريات تعينكم على كهولتكم؟!..

لمعت بعينيها دمعة.. تشيح بوجهها نحو النافذة ناظرة للبحر ومداه البعيد في محاولة للهروب من نظراته ودمعتها..

يندهش للحزن داخلها.. لأول مرة يلحظ دموعها، لعلّه وقع حزنها بقلبه!.. ينتبه لكلمات الأغنية التالية فيشاكسها ممعنًا بعينيها:

-"عيب إن أجول على نفسي احتبرت أو اجول وليف روحي هجرني من بين عيون الناس اخترت جوز العيون اللي جتلني.."

تتبسّم في خجل .. فيكمل عنهما منير: "ما أنا يا حمام زيك نايح والحزن ده لون وروايح سهم الهوى ديما صايب"

كان كل شيئًا بريئًا صافيًا.. تقاربا منذ تلك اللحظة كثيرًا.. كانت تستشعر حبه لها وخوفه عليها، ولكنّه أبدًا لم يصرِّح.. تَخَرَّجَا وعملا.. ماتت والدتها.. ظلّ جانبها يدعمها ويحميها حتى تخطت حزنها.. في تلك الآونة تردّت أحواله فجأة بسبب وفاة أبيه.. رحل أبوه تاركًا على عاتقه حمل ثلاثة إخوة وأمه.. كان عليه أن يعمل ليلًا نهارًا ليعول تلك الأسرة.. لم يجدا الوقت ليجتمعا أو يتهاتفا مثلما سبق.. ابتعد عنها تدريجيًا.. كانت تقاوم ابتعاده ولكن ما قاومته حدث.. افترق الوليفان.. فقط ظلّت تطمئن عليه من أمه..

مرت سنون العمر في لمح البصر.. قضى عمره في الركض خلف لقمة العيش.. تزوج من امرأة من أسرة طيبة أحبته وأنجب طفلا يشبهه أسماه محمد وطفلة أسماها دعاء.. حينها فقط علمت أنّه أحبّها.. كانت أمه تحكي لها عن الشبه الشديد بينها والطفلة.. وكيف أنّه دومًا فسّر ذلك بأن جمال الطفلة من حظ اسمها.. كلتاهما كانتا

غاليته.. حفظها ذكرى جميلة داخله يتذكرها ويبتسم.. كان يعلم بحبها ولكنه أيضًا كان عالما بالفروق الاجتماعية والطبقية بينهما.. لم تواته الجرأة على كسر حاجز الصداقة بينهما أبدًا.. آثر أن يبقيها داخله ذكرى طيبة.. ابتعد عنها علها تجد من يستحق قلبها..

ماتت أمه وانقطعت أخباره . مرَّت بتجارب بائسة أعادها دومًا إليه.. احتفظت به داخلها حبا وجنينا، كليهما غير مكتمل.. أفنت وحدها في إنجازات.. عمل وتعليم.. شهادات وتكريمات.. اتّخذت من دور الأيتام ملجًا لشقيعها.. اعتبرت كل يتيم طفلها منه.. كانت تتدثر بدفء أعينهم.. احترقت من أجل إسعاد من حولها..

تنساب دمعة دافئة على وجنتها.. تغلق عينيّها على صورته.. جُلّ عمرها ذهب سدى، كالرمال حملتها الرياح.. وما بين نقطة ونقطة.. بداية أغفلتها ونهاية عذراء.. رحلت.. طفلة انطلقت بجنون العمر تصعد درجات السماء..

خاتمة

في الواقع لا توجد خاتمة للجرح، ولا وجود لنا من دون ذاكرة..

فقط تحرُّوا مواقع الفرح وإذا أدركتموه تمسّكوا به جيدًا حتى آخر لحظة فلا نعلم متى تسنح لنا الفرصة للقائه مرّة أخرى.

شكر و تقدير

لكل من وثق بي واستضافني فكرًا ورحبّ بقراءتي واحتفى بكلماتي..

لكل من اقتنى ابنة قلبي الأولى "أنثى مع وقف التنفيذ" وجدد ثقته الغالية بي باقتنائه الثانية "ذاكرة جرح"..

أرجو من الله أن تكونوا استمتعتم، وإن أخطأت فشكرًا أن تحملتم راجيةً أن تصوّبوا لي.. آملة من الله أن أظلَّ عند حسن ظنِّكم بي.

لعائلتي الكريمة وأسرتي المحبَّة (أمي وأبي وأخوتي).. دمتم لي سندي وأحبتي.

لأستاذي الذي دعَّمَني نصحًا ونقدًا وأخذ بيدي لأخطو خطواتي الأولى على الطريق الصحيح: د. مدحت عيسى، امتناني وإعزازي.

لأصدقائي الأعزَّاء وإخوتي الذين لم تلدهم أمي ودعَّموني حبًا ومودةً، للمحترمين دون ترتيب:

(صاحبة القلب الأنقى على الإطلاق/ م. مروة رمضان، الصحفية النشيطة الملهمة/ شيماء طه، أستاذتي ومعلِّمتي النقية صاحبة القلب الذهبي/ د.نهلة إبراهيم، الكاتبة الرقيقة والإعلامية الجميلة/ أميرة

مجاهد، الشاعرة المرهفة والقاصة والناقدة/ أميرة عبد الشافي، الشاعر والقاص والناقد المتمكن/ د. محمد مخيمر، الشاعر الجميل/ حامد السحرتي ، شاعر العامية الرائع/ محمد الغازي ، الفنان الشامل الدينامو/ م. عادل سمير أدام الله الود والتراحم بيننا.

عن الكاتبة

- رانيا حمدي جابر.. اسم الشهرة "رانيا حمدي"
- كاتبة مصرية سكندرية
- مواليد الإسكندرية – يوليو 1985
- تعمل بمجال العلاقات العامة بإحدى الشركات
- حاصلة على ليسانس الآداب قسم الاجتماع جامعة الإسكندرية 2008، حاصلة على دبلومة في الموارد البشرية 2009، حاصلة على دبلومة في التسويق والإعلان والمبيعات 2010
- تدرس حاليًا بكلية الإعلام جامعة القاهرة تعليم مفتوح.
- لها كتاب بعنوان قصص "أنثى مع وقف التنفيذ" ط1 أغسطس 2011، ط2 نوفمبر تم اختيار الكاتبة كمتحدثة بمؤتمر TEDx ElRaml 2012/12/1
- عملت كمحررة بمجلة "كلمتنا" خلال دراستها الجامعية
- كما تم نشر أعمال لها مابين القصة والشعر والمقالات الساخرة في كل من: جريدة الجماهير، وجريدة الجيل، ومجلة الأهرام العربي.. وعدة مواقع إلكترونية.

الفهـرس

للتواصل مع الكاتبة

Author_Rania_Hamdy85@yahoo.com

 Rania Hamdy

 RaniaHG

http://www.raniahamdy.blogspot.com/

"آراؤكم تهمني .. لا تضنوا علي بها"



كان يشاهدها من بعيد.. احتفظ بتلك المسافة بينهما فكما مسافات المكان هناك مسافات العمر.. أيهما أخلف موعده؟!.. لا يعلم.. سادت المسافة المشهد فبينهما مسافة قدر تحكم الأمر..

****

أنا أكره القهوة الجاهزة.. أكره كل ما هو سهل.. أحبّها تقليدية الصنع رائحتها دون إضافات نافذة، وجه سميك، قاتمة.. تميل للمرارة إلا منْ نفثة سكر..

أكره اللون الرمادي الباهت ..تغريني الألوان، لا تستحوذ عليّ.. قدريّ.. أدركت يقيني في مرحلة ما: حادّ الطبع.. ديكتاتوري الهوى.. الوسطية ديني، أحببت مرة وبعدها لم أجد في أنثى واحدة ما يغريني.. تزوّجت زواجاً تقليدياً يتناسب وتوقيت مدينتي إلا أنه لا يغطي خارطتي.. زواجا قد لا يكون كافيا ولكنه كفئاً لمنزلتي ..

كل شيء في موقعه مرتب، منظم.. منظومة لا يشوبها شائبة، حتى وقعت عيناي عليك.. صدفة ارتطمنا كشهابين محدثين فوضى يستحيل بعدها للكون أن يستقيم .. التقينا.. إذًا في الكون أنثى تسترعي الانتباه.. أنتِ .. أنت



رانيا حمدي

كاتبة سكندرية

بكالوريوس إعلام

صدر لها: مجموعة قصصية بعنوان "أنثى مع وقف التنفيذ" عام ٢٠١١

Cover by #ahz_art



دار اكتب  للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01111947957